نصر

الشعر العربي

808.1:N26sA

نصر ـ نسيم

الشعر العربي في بلاطات الملوك .

808.1
N26sA
11 APR 1995
FE 26 64
MR 9 64
APR 23
DEC 1
DEC 2
MAY 28
FE 8'58
FE 27'58
APR 13'58
DE 9'58
28 Jan 64
27 DEC 1970
27 APR
05 DEC 1997
Circulation Dept.3

تقدمة لمكتبة [illegible]
الجامعة الاميركية في بيروت
من المؤلف
في ١٨/١٠/١٩٥٢

يُطلب هذا الكتاب من دار مجلة الاديب
صندوق البريد ٨٧٨ — تلفون ٤٧ — ٩٢
ومن مطابع صادر ريحاني ، فرع المكتبة — تلفون ٦٢ — ٦٨
ومن جميع المكاتب
بيروت — لبنان

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

اهداء الكتاب :

الى ربيب الاخلاق النبيلة رجل العلم النافع
والادب السليم والحكم النزيه ،

الامير الدكتور رئيف ابي اللمع

وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة

808.1
N26sA
C.1

نسيم نصر

الشعر العربي

في بلاطات الملوك

Cat. Jan. 11, 54

دار مجلة الأديب

١٩٥٠

AMERICAN MEDICAL ASSOCIATION LIBRARY

مقدمة

(أعذب الشعر أكذبه) .. رأي كان لقدامى النقاد عندنا في الادب العربي .

ولا تحسب أنه لم يرزق حظاً من القبول والانتشار ، فقد اجتمع له من التأكيد والجد والرواج ، ما لم يجتمع لغيره من الاراء الجديرة بالثقة .

ولعل لهؤلاء القدماء ما يشفع بهذا الرأي عندهم ، ولعل لهم من وجوه النظر ما يجعله حقاً محضاً او كالحق المحض .. فما يمنع ان يكون مفهومهم في الكذب هنا ، غير المفهوم العادي المتبادر . وما يقطع لنا بان لا يكون معناهم به في حدود الصنيع الادبي ، يلاقي من قرب او من بعد ، ما نعني اليوم بعبارة « الصدق الفني » .

فهذا الصدق قطعاً ، شيء غير المفهوم الاخلاقي بل لا يعترف بأنه منه في جوهره ، وغير الواقع في مدلوله الساذج الضيق .. انه التقويم للجهد المبدع ، في غير احتفال بالشيء الخارج عنه أجاء متفقاً معه ام مختلفاً عليه .

فشأن الفن أنه لا يعني غير ذاته ، وعلى مقدار ما في الاشياء منه يعطيها ألفاظ القيمة : من صدق وكذب ، وسمو واسفاف ، ونجاح وإخفاق .

فالشاعر مثلاً — وهو يستفرغ مجهوده المبدع لابراز عناصر الصورة الادبية ، التي تجلت له او لمعت في مماوة شروده — لا يأبه الا باستكمالها في كل مالها من ملابسات وتفاصيل .. وصفة صدقه انما تجيء في حدود هذا « الاستكمال للصورة » وان جانب به الواقع او خرج عليه خروجاً كلياً او جزئياً .

ومن ثم نظهر اولا : على كيف يلتقي مفهوم الصدق بمقياس الفن ، ومفهوم الكذب بمقياس الواقع .

ونظهر ثانياً : على أن الناقد العربي القديم ، يوم قال مقاله ذاك وخرج فيه برأي غريب ، انما قال شيئاً سائغاً لدينا أيضاً ، او في الاقل ليس بعيداً عن منهج أساليبنا .

ومهما يكن ، فالذي يعنينا من امر هذا المثل النقدي الآن ، هو انه راج كثيراً ، واتفق رواجه أكثر وأكثر حيال المديح من أغراض الشعر ، حتى اباح للشعراء ذلك النحو المفرط من المبالغة ، الشاذ في الافراط . .

وكتاب مؤلفنا الكريم الاستاذ نسيم نصر ؛ يدور على هذا الجانب المادح في ابرز أعلامه وأغنى محافله ، وأعني انه يدور على الاعذب والآنق واعل صفة العذوبة هي أجمع ما يصلك بهذا الكتاب .

نعم انه كتاب ليس هو الى النقد الخالص على انه اتسع له ، وليس هو الى الطرافة الخالصة ، على انه لم ينكمش عنها .

فالكتاب من هذه الناحية مزيج محبب ، يعطيك منه على نحوين : فهو للمتعة حين تشاء المتعة ، وهو للتذوق الفني حين تشاء توفير المادة للتذوق . . على أنه فوق هذا وهذا ، يأخذ بك في مضائق البحث الجاد الذي حشد له الاداة العقلية اللازمة ، دون ان تضيق به او يلحقك ما تحذر من رهق عقلي واعنات .

ولعلك لا تشك معي في هذا كله ، وأنت تضم الكتاب اليك ضماً يسيراً اوممعناً .

ولست اماريك . . . فالكتاب عقده مؤلفنا الكريم عقداً فريداً ، احمده له واغبطه عليه ، فانا ما اعرف سابقاً جمع نفسه على مثل موضوعه وكان له حظه من التوفيق : ان في سداد التقسيم ومراحل الانتقال ، او في لباقة المعالجة واصابة القصد في يسر .

وما ظنك في كتاب يعرض لنا حكاية الشعر وحكاية الملك ، وما كان بينهما من اتفاق واختلاف ، ثم ما كان بين شخصيتيهما من قوة وضعف . . ليس بنا من بعد

بأربعة اعلام نماذج ، جاء ايهم وهو عنوان بلاط ، ومظهر دولة ، وارتسام جيل .

وان كان من حقي التنويه بشيء ، فبطائفة من الآراء القيمة أتت منثورة على منازلها من الكتاب . . ومن اهمها : مناقشة الرأي الشاك بأصالة المديح في الشعر ، وبتعبير آخر ، الرأي الشاك بحظ المديح من الشاعرية ، وليس لشيء إلا لأنه انفصل عن يد المناسبة .

فالشعر عندُ مؤلفنا ليس الواناً يصادق منها ويعادي ، وإنما هو سكب إبداع و « زخم حي » على اي وضع قامت المرآة .

نعم ان الشعر في جوهره ، لحظات إلهام يجري بها حسن فني ، وروائع بيان يسلسلها طبع أدبي من شأنه أنه يسعى الى الملاءمة بين فكرة الصورة وخطوطها الملونة « بين الفاظها والمعاني » . . وان ذاك الحس وهذا الطبع ، هما اللذان يتعاطيان جميعاً على إبراز الأثر الشعري ، أكان في هذا اللون ام ذاك .

ثم لا يقل عن هذا الرأي اهمية ، رأيه الآخر الذي بثه في فصل «شخصية الشاعر» وسواه على أن بين كلمات (شيطان الشعر والوحي واللاوعي) قدراً مشتركاً ، وانها ذات ملامح واحدة اصيلة . . وإن اختلفت بعد ذلك ، فبعمق المفهوم فقط ، وبحظ عصر الكلمة من الادراك .

وبعد . . فاني لااود أن أقحم نفسي طويلاً بينك وبين الكتاب مرة ، ثم بينك وبين الكاتب مرة أخرى ، فأنت اجدر بان تباشرهما مباشرة من قريب .

ان حكاية الماء وان كان من شأنها ان تحرك شفاه الظمأ ، فليست هي سبيل الري .

وإن من حق هذا الجهد الزكي ، كما من حقك ان تقف عنده للفيء وللشمر .

عبدالله العلايلي

مدخل

وكان يوم ، منذ عشرين عاماً ، عهد فيه الي تدريس الادب العربي في معهد ثانوي فأخذت بالمهمة ، في صفوف منهاج البكالوريا ، وانا ما ازال متأثراً بالمعرفة السطحية التي قبستها تلميذاً ، وفيها ما يشير بوضوح الى ان الآداب العربية قائمة في معظمها على المديح والهجاء . وكيف لا يكون الامر كذلك ، واكثر ما كنت ارويه من الشعر العربي من نوع : « قال يمدح . . . . » مستجدياً او مسترضياً او متزلفاً .

وانصرفت الى الاضطلاع بعبء ما ادرس ، وفي البلاد من الادباء والمتأدبين ، والمدرسين ايضاً ، عدد غير قليل ممن يقولون : « انقرع شعر الآداب الراقية بنظم الهراش وسفح ماء الوجه في خزانة العربية ؟ »

لم يطل بي العهد باحثاً مجتهداً أعتمد على النصوص لا على الشروح والاراء القديمة المحنطة او الدروس المتهافتة الى غرض منحرف او سطحية بادية ؛ فعدت من ذينك البحث والاجتهاد ، وفي يدي شيء مما يذر التراب عن بعض جوهر الشعر العربي المنظوم في اكناف الملوك والعظماء .

والعربية لم تنفرد بهذه الناحية من الادب ؛ فالدولتان الحكمية والمالية كانتا

وما تزالان مباشرتي التأثير في دولة الادب في كل زمان ومكان .

وليست هذه الصفحات التي عنيت بجمعها مقتصداً في الكلام ، غير يسير من الاراء المدروسة في التنويه بقدر الشعر عند سائر الامم ومنزلته عند العرب والاشارة الى الغنائية العربية واستعراض بعض الشعراء المقدمين نماذج في الكشف عن حقيقة المدح الشعري وصلته ببلاطات الملوك في مختلف عصور العربية .

ولست اخلص من ذلك الى القول بان وقف الشعر على أعتاب العظماء حافزة الى علياء الابداع والادب الخالد ولكنني عمدت ، فيما أعرض ، الى انصاف شعراء هذا النوع من الشعر جهدي .

نسيم نصر

— توطئة —

الادب العربي بين خاص وعام

لا اعرف حسنة جادت بها الحياة على الاقطار العربيـة ، في الفترة من الزمن التي تلت الحرب العالمية الاولى ، تعادل هذا النهوض الادبي السابق الموطىء للعمران المأمول والتحرر المنشود .

وكان لا بد للعاملين في حقل النهضة الفكرية الادبية من تناول الارث العربي فيما يصلح منه ان يكون اسساً ودعائم للانتاج الحديث والثقافة العصرية . وكان مما لا غنية لنا عنه ايضاً ان نتمثل بادب الغرب ، فارض السيادتين الفكرية والسياسية على العالم ، والتمثل لا يتم الا بالاخذ في امرين : النقل والتقليد المروض الذي ينتهي الى تفكير أصيل .

اما النقل فقد طوته العربية بشكله المنظم مع الخليفة المأمون ، عالم خلفاء العرب ومؤسس « بيت الحكمة » ومرغم الحكومات المغلوبة على تسليم نفائس العلم والادب غرامة حربية . واما التقليد فهو ديدننا في هذه الايام وحبذا لو عملنا على اتقانه فيغنينا ، في بعض ما نبني ، عن النقل والوضع .

وكأننا ، وقد عولنا على التقليد السطحي زمناً ، اخذنا في مطلع النهضة الحديثـة

تنشر ما طوته مؤلفات المؤرخين ، امثال ابي عبيدة والاصمعي وابن سلام وابي زيد القرشي وابي الفرج الاصفهاني ، من جامعي اخبار العرب وادبهم ناهجين ، فيما نعمل ، نهج ادباء الغرب القائمين في عمارة الادب ، فنحسن التقليد مرة ونسيئه مرات ؛ الى ان اشتركت الحكومات في العمل مع الادباء فاعلنت مناهج التدريس الثانوي المعروف بمنهاج « البكالوريا » فشرعنا نوفق بين المنقول والمعقول فيما ننشر .

هنا بدأ تناقض الاراء في ماهية الادب العربي ، في مجمله الموروث ، من حيث الخصوص والعموم وصحة النسبة والنحل وغنى الادب العربي وفقره ؛ وها نحن نعالج في هذا البحث :

الادب العربي بين خاص وعام

ان تعريفاً موجزاً لخصوص الادب وعمومه يلقي نوراً على بساط هذا البحث فننظر في خزانة الادب العربي باعتبار مفهوم وزبط الكلام بالتعريف المقدم وهذا التعريف لا نرى احتماله ممكناً ان لم نتناول الادب في مؤثراته ومؤهلاته في زمانه وبيئته ، او بتعبير جامع ، في تمثيله عصره . على هذا الاساس نقول :

الادب صورة النفس وترجمان الفكر وطريق الاغراض في كل مكان وزمان وتقاس خصوصية ادب كل امة وعموميته بمقياس الصلة التي يوجدها ادبها بينها وبين سائر الامم .

فمن الآداب ما هو عالمي ومنها ما هو موضعي ؛ فيكون مدار بحثنا اذاً النظر في ضيق النطاق الذي عرفه الادب العربي وفي سعته ومن مبلغ فسحة هذا النطاق ندرك عمومية ادباء الضاد وخصوصيتهم .

ان اللغة العربية هي احدى اللغات السامية الحديثة البارزة وهي على رغم ما كانت عليه من تضعضع في الوحدة الوضعية ، في الماضي البعيد الوثني ، سارت في قافلة طليعة لغات تلك العصور اللابسة ما تسقط من مجد اليونانية ، حاضنة المدنية الهلينية ، وهي

مع حداثة عهدها ، بالنسبة الى اخواتها السامية الاصل ، ما تزال ابقاها ذكراً واوسعها ادباً وادلها على حياة ابنائها .

ولكي نسير في بحثنا هذا على نور التاريخ نبدأ بالاشارة الى امجاد العربية فيما لا يتجاوز بضعة قرون قبل الميلاد فنقول :

لقد كانت اللغة الفارسية اقدم اللغات المعروفة التي تأثرت بالعربية تأثراً محسوساً واخذت عنها وهذا ابن قتيبة يصرح برأي ذي بال وهو ان الفرس لم يكن لهم شعر قبل اختلاطهم بالعرب . وذهب نفر من مؤرخي الفرس الى القول بان اول من نظم الشعر في فارس هو بهرام جور ربيب الحيرة ، عاصمة المناذرة خلفاء الفرس في عداوة الروم ؛ وهكذا تكون العربية قد اعانت على خلق شعر لدولة عريقة في المجد لم يكن لها شعر قبل اتصالها بالعرب .

وفي الحيرة بدأ العرب في الاخذ باسباب علوم الكلدان وفلسفة اليونان وكان لهم فضل في نشر ما أخذوا .

ولم تقف حركة التأثير العربي في الآداب الفارسية عند حد جزئي في الشعر بل تجاوزته ، في ظل الاسلام ، الى مناح عديدة ونكتفي ان نذكر من بني بوية ، الفرس جنساً والعرب تأليفاً ، الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد وأن نشير الى منزلتها المرموقة بين بلغاء كتاب العربية حتى ندرك الى اي حد تعشق الفرس لغة الضاد .

واستمر مدى النفوذ العربي الادبي في تمديد نطاقه على رغم من السياسة ؛ وهذا العصر السلجوقي ، عصر النفوذ الفارسي في بغداد ، شاهد لسلطان العربية على السنة المستبدين بعرش خلفائها فقد نبغت منهم آنئذاك طوائف من الادباء والعلماء تضيق دائرة بحثنا عن الاشتغال بذكرهم والاشارة الى آثارهم المشهورة الكثيرة .

وعن الرومان اخذ نوابغ الدولة الغسانية مدنية زاهرة وحملوا مشاعلها في كثير من البلاد التي اتصل بها نفوذهم وامتدت اليها علاقاتهم فكانوا مع نوابغ الحيرة ، جناحي العربية المتصلين بالروم من جهة وبالفرس من أخرى على كره من العداوة السياسية

التي رافقت دولتي بني لخم وبني غسان طوال عهد سلطانيهما .

ومن الادلة القاطعة على ما للعربية من يد قديمة في نهضة الآداب والعلوم الحملة التي جهزها عرب الاسكندرية في القرون الاولى للمسيحية على الثقافة اليونانية فغنموا من من خزائنها المعارف الكثيرة وشرعوا يكسفون مجد اللغة السريانية واوجدوا دستوراً عربياً للابحاث العلمية .

ومن شاء ان يتعرف الى مدى النشاط العلمي الادبي ، عند العرب في القرون الاولى للاسلام حتى عهد الانحطاط العباسي ويحس التفاهم الديني العملي الوثيق ، فليراجع بعض المصادر الموثوق بها من التي تنقل الينا أخبار « بيت الحكمة » في عهد المأمون ويبحث بصورة خاصة في القرن الرابع الهجري ، ذروة الاقتباس والانتاج الذي أغنى العربية فعكست معارفها على مرآة بيانها المصقول .

نصل الى هنا في البحث فنحس ان القارىء اخذ يعتقد ان الكلام انحرف عن نحو الغاية الادبية المتوخاة ولكننا لم نتعرض لما تقدم الا لنعرض لذهن القارىء الاديب ان العربية التي عرفها في ادبها الجاهلي غنية بخيال شعرائها واحساسهم الذين توفقوا ، أعدنانيين كانوا ام قحطانيين ، الى شعر يكاد يكون جامعاً لمناحي الشعر المعروف في ارقى اللغات المهذبة ، تعرفت ايضاً الى اساليب التفكير المنظم في عهود ازدهار دولتها وفي نزوات نبوغ بعض ابنائها وساهمت في انماء ثروة الانتاج الثقافي العالمي منذ اجيال بعيدة . اما الناحية الادبية الخالصة التي نعتمدها اساساً لهذا البحث فانها ، فيما خلا امتدادها الى بلاد فارس قديماً ، بقيت محدودة التأثير في خارج البلاد العربية الى ان كان الفتح الاسلامي فحمل القرآن الكريم بلاغته الى اصقاع كثيرة ونقل تجار العرب وقادتهم وخطباؤهم وشعراؤهم اساليب البيان القريشي الى حيث حلوا .

وان كتاباً نشر في العالم تعاليم سامية في بيان كله اعجاز لحري ان يطوف بأدب العربية ممسكاً بقوة وحيه عنان الروائع الانشائية . وان تجارة القوافل ، التي سبقت عهد البخار باجيال طويلة وجابت آسيا كلها واتصلت باطراف اوروبا تحمل بعض

الاصطلاحات العربية مع بضائعها الى شتيت البلاد ، لجديرة بترك الاثر على قدر مايسمح تقدم التجارة الجبار ؛ وهذا تاريخ مكة وتدمر والشاطىء العربي وبلاد المغرب ناطق بعظمة العربية تجارياً ؛ والاقبال على بضاعة قوم دعوة لانتشار لغتهم .

وخطباء العرب لا يحسب معهم بمكانة من قوة البيان وضروب المنطق غير قليل ممن تقدمهم او عاصرهم من خطباء الامم المعروفة فهؤلاء طارق بن زياد والحجاج بن يوسف وزياد بن ابيه شقوا طريقاً واسعة لهيبة الحكم والقيادة الحربية عبّدها بعدهم قادة الامم وخطباؤها المفوهون وناثروها المحررون

والشعر تراث الآداب العربية الاقدم ومصور اخلاقها وراسم اشكال بيئاتها يقيم وحده عمارة من الآداب لا تخلق جدتها الايام وقد يكون في بعض ما نأخذ على قديم شعرائنا من جاهليين ومخضرمين واموبين استحقاق ننكره وميزة لا نتنبه لها . وان خزائن الادب لا بد لها ، مجاراة لروح الفن ، من ان تقتدي بالمتاحف فتحفظ لطرفة بن العبد ، مثلاً وصف ناقته الطويل ، الدقيق صيانة لبعض الاوضاع العربية من الضياع واحتفاظاً بتاريخ اهمية الناقة في حياة العربي خاصة والاسيويين والافريقيين عامة يوم لم يكن العالم قد عرف من وسائل النقل ومراكب الاسفار البعيدة غير هذا الحيوان الجليد . وعندي ان الشاعر الذي يجيد عشرات الابيات في وصف جمل أشعر من آخر معاصر عالم يجيد مئات في وصف الطيارة او الباخرة . وان بدوياً يقف عند اطلال حبيبته ، بعد عشرين سنة ، فلا يبدو لعينه سوى نومي وثلاثة اسافي فيحمل اليك ، من عالم خياله الفياض بالصور وحسه الدقيق ، ابياتاً لم يقل اجود منها نادبوها كل أثيبنا وعظمة روما من فحول الشعراء ، لهو شاعر لا يجارى .

وبعد ، الم يكن ابو العلاء في رسالة الغفران سابقا لدانتي شاعر الايطالية الاكبر؟ وربما كان معلماً له . وكان في معظم شعره من شعراء الغور الفكري العالمي .

وعنترة ، الم يكن ملماً الماماً طبيعياً بعلم النفس ، ذخيرة الاديب الكبرى في عرف العلم والدراسة ، في عصرنا الحاضر ، قبل ان وجد هذا العلم ؟ كما في قوله :

« ولقد شفى نفسي وابرأ سقمها قيل الفوارس : « ويك عنتر أقدم »

وفي سينية البحتري المنظومة قبل عهد التجايات الحديثة الفنية في الشعر العالمي ، الا نوشك ان نحس فيها ايوان كسرى يتحرك ؟ ومثل هذا القول يصح في وصفه بركة المتوكل .

وابو الطيب المتنبي ، هل ترك ، في حلبة الشعر مجالا لسابق جامع ؟ وكم بيت له نشعر فيها فيها بخيال الملاحم ، بضاعتنا النادرة ، كبعض ابياته في وصف الاسد :

ورد اذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيرهُ والنيلا

متخضبٌ بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلا »

وادب ، القصة الذي نتهم الادب العربي الموروث بخلوه منه ، هل هو غير نطاق جامع تدخل فيه « الف ليلة وليلة » وقصة عنترة ومقامات الحريري وبديع الزمان واليازجي والترك فتلتقي بروايات زيدان ومسرحيات نقاش ونجيب حداد لتستقبل رواية تيمور ومسرح شوقي وكلها تتهادى تحت شرف من قصص القرآن الكريم ؟

وان تلمسنا غرر القديم من شعرنا المترجم العالمي فهذه عصور الجاهلية طلعت على العالم القديم بملقاتها الرائعة وبعض المنظوم الملوكي يوم كان الشعر حلماً في ضمير بعض اللغات الحية وكان بعضها الآخر لم يضعه الزمن . ففي العهد الذي شرع فيه شارلمان ، اقدم عظماء ملوك فرنسا ، في انشاء المدارس المنظمة كانت صحراء تدمر تستعد لاستقبال المأمون برصديه الفلكيين . — والعلم توأم الثقافة الادبية العالية — وفي العهد الذي كان فيه التقاضي ماعيزال سيئاً ، لا مراس له عند اكثر الامم ولا إحكام في ضبطه ، جمع زهير بن ابي سلمى مجلة في بيت واحد من الشعر :

« وان الحق مقطعه ثلاث يمين او نفار او جلاء

ونظم الحرث اليشكري في معلقته دفاع دكتور في الحقوق فيه من فنون المحاماة الحديثة ما يدهش الشارعين .

وماذا نقول في شعر الاخطل التغلبي الذي أغنى الامويين في عهدهم عن اكبر جريدة

سياسية في اشهر دول العالم اليوم ؟ وفقا لحاجات العصر طبعاً .

وبعد ان نسقط لفيلا سباسا الاسباني ، في مقدمة على بساط الريح ، بعض مغالاة الشاعر يبقى فيها ما يكفي للاشارة الى فضل العربية على الآداب الغربية عامة والاسبانية خاصة ؛ هذه اللغة التي غزاها المستشرقون ونقلوا عنها ولم ينصفها واحدمنهم حتى ظلمها جماعات ونحن ما نبرح نأخذهم حجة عليها ، على علاتهم .

وخلاصة القول ان الآداب العربية التي اجتازت مراحل طويلة ، في فترات من الزمن متوالية او متفاصلة ، مهدمة الكيان ترمي بطغيان الحكم مرة وتمزيق الشمل مراراً وكانت ، على الرغم من ذلك كله ، تجد لها مقيلا من العثار وناشراً للوائها بعد اللفّ ، لهي آداب لغة حية لاشتقاقها من الحياة وباقية لاتصالها بالبقاء ولن يعفر لها جبين وجذورها في الارض وراسها في السماء .

المؤلف

الشعر العربي

في بلاطات الملوك

الشعر ومنزلته عند سائر الامم :

الادب هو الموجة الروحية من كل انسان، والشعر هو شعاع هذه الموجة وموسيقاها المهدهدة الام البشر مرة والموقظة كبرياءهم اخرى ؛ او هو اصابع الابداع ترسم صور الحياة الصحيحة في مقاطع الكلام وقوالب الاوضاع .

ولقد اجمع المؤرخون ، بعد تنقيبهم الطويل في خزائن الآداب العالمية ، على ان الشعر اسبق الآثار الأدبية والموروثات الصورية التي خلفها السلف منذ فجر التاريخ . وان كان النثر اعرق في متناول التعبير عن حاجات الحياة الفكرية وفي تأليف الحوار المترجم عن مقاصد الناس في شؤونهم اليومية وأخذهم وعطائهم ان صح ان نسمي هذا الاخير نثراً ، فالشعر أقدم في الاعراب عما يعرض لهم من خصائص الحياة والتغني بما يغلي في صدورهم من حماسة وما يهز أحاسيسهم من حب او بغض وما يعصف في قرارات نفوسهم من حزن او ألم ؛ لذلك عرف للهمج في افريقيا وغيرها من الاماكن التي ما يزال اهلها يعيشون ، حتى اليوم ، على بعض مألوف الانسان « الاول » منظومات غنائية يهزجون ببعضها في افراحهم ويرقصون على انغامها ويستندون مآقيهم في ساعات الألم

وايام المناديب

وللأمم المتوغلة في القدم مقاطع شعرية وقصائد منها ما هو بمنزلة ترانيم دينية ومنها ما هو بمثابة اناشيد حماسية ومنها ما يترجم عن منازع النفس المتنوعة . واشهر عباقرة الشعر العالمي على مر الاجيال هم :

فياسة شاعر « مهابهاراته » وفاليكي صاحب ديوان « راماياته » الكاهنان الهنديان مخلدا مظاهر اللغة السنسكريتية الشعرية ق . م . بقرون عديدة وهوميروس شاعر « الالياذة » و « الاوديسا » اليوناني ؛ ولفياسة عند الهنود منزلة عالية كمنزلة هوميروس عند اليونان ، وللفرس الحسن بن اسحاق المعروف بالفردوسي ومؤلف « الشاهنامة » في القرن الرابع هـ ؛ وللرومان فرجيل ، شاعر القيصر اوكتافيوس ، وناظم « الاينابيد » واخواتها من روائع الشعر اللاتيني وزميله لوقريس ، منشد « طبيعة الاشياء » ومعلن الفلسفة « الابيقورية » [1] شعراً وكلاهما من شعراء القرن الاخير السابق الميلاد المسيحي . وللايطاليين ، في القرن الثالث عشر م ؛ شاعرهم الاكبر دانتي صاحب « الكوميدية الالهية » التي اهلته للقب « ابي الشعر الايطالي » . وللانكليز ميلتون صاحب « الفردوس الضائع » .

اما الفرنسويون فانهم يقومون في طليعة الامم المتمدنة في التهافت الى احتلال الادباء والشعراء المجلين واحياء ذكراهم بمظاهر هي اشبه بمهرجانات الوثنيين لآلهتهم منها بحفلات تكريم ادباء . ولقد كان لهم في القرن السابق لميلتون الانكليزي شاعر مرموق المنزلة غني الايقاع اسمه رونسار ولكن هذا الشاعر قصر عن ان يضع الامة الفرنسوية في المرتبة الاولى من امم الثروة الشعرية فبقيت غضيضة الطرف حتى كان ، شعراء القرنين السابع عشر والثامن عشر ؛ واقدرهم على المراس الادبي الطويل فولتير صاحب « الهانرياد » ، ثم شعراء القرن التاسع عشر وفي طليعتهم جبار « الرومانطيقية » الخصب ومثبت آساسها ، فيكتور هيجو ورهط من معاصريه العباقرة كموسيه ،

(١) مذهب فلسفي يقول ب : « متعة الحواس » ولكن بصورة انيقة

ولامارتين ، وفيني ، واستمرت من ذلك الحين حتى اليوم منبتاً لكثير من اعلام الادب الحديث .

ولكي نقيم مصداقاً على صحة ما ذكرنا ، عن منزلة الشعر التليدة في الامم ذات الارث الثقافي ، نأتي على ذكر بعض المؤلفات التي خص بها واضعوها ، وكلهم من ألمع رجال الفكر العالمي ، صناعة الشعر وهي : « قواعد الشعر اليوناني » لأرسطو ، « وقواعد الشعر اللاتيني » لهوراس ، « وقواعد الشعر الفرنسوي » لبوالو ، ولأرسطو كتاب آخر في الشعر خصهُ الى العربيَّة القاضي ابو الوليد بن رشد وظهر هذا التلخيص مطبوعاً في فلورنسا من اعمال ايطاليا سنة ١٨٧٣ بعناية المستشرق فوستو لازينو .

وان نحن اهملنا بعض المنظوم الفلسفي المعروف بالشعر الصوفي والذى كان جيادُ حلبته من الفرس ، وعلى راسهم امام الصوفيَّة جلال الدين الرومي ، صاحب المثنوي ، « قرآن اللغة الفارسيَّة » راينا انَّ الشعرَ ينقسم باعتبار نفس الشاعر الى قسمين كبيرين غنائي وحماسي ؛ وتحت هذين التعريفين الشاملين يُوشك أن يدخل كلُّ ما وصل الينا من الشعر .

وأشهر منظومات الحماسة هي الإلياذة والاوديسَّا لهوميروس اليوناني والإنييد لفرجيل اللاتيني والكوميدية الالهيـة لدانتي الايطـالي والفردوس الضائع لملتون الانكليزي والهانزياد لفولتير الفرنسوي والحماسة النابوليونيَّة لهيجو الفرنسوي .

أمَّا الشعر الغنائي فله عند العرب الميدان الفسيح والايقاع الفريـد المصفَّى لقربى عوامل هذا الشعر من حياة الجزيرة الفطريَّة الساذجة في معظمها .

نشأة الشعر في العرب

وانضاج هائله

قد تكون مرحلةُ الزمن التي اجتازتها العربيَّة ، في وجه استقراريٍّ واحد ، اوسعَ مرحلةٍ صمدت لها اللغات الحيَّة الراقية ؛ وشعرها جاء في الزمن البعيد مستقطراً من قلوب ابنائها مصوِّراً لحياتهم معبِّراً عن مشاعرهم وتصوُّراتهم موقعاً على انغام موسيقاه الرائعة وقوافيه المتَّزنة اناشيدَ عناصرِ الحياة المتآلفة مرَّة والمتضاربة مرَّات .

والعهد المعروف في مُصنَّفات تاريخ الآداب العربيَّة بالجاهليَّة لا يصحُّ ان يكون المجلى الأوَّل « لطفولة » لغة مضر الفصيحة البليغة لسلامة بديعه وصحة خياله ورقيق غزله وبين حكمته كما يصحُّ ان تكون « التروبادور » الفرنسويَّة طفلة الادب الفرنسي الحديث ؛ ففي هذه من النبوة عن الذوق الحديث ، او على الاصح المثقَّف ، ما يؤيِّدُ طفوليتها .

ومن المرجَّح ان لغة مضر التي استقرَّ فيها اللسان العربي عرفت الشعر في زمنٍ أبعدَ من عصر المعلَّقات وذلك لما يبدو في هذه من التهذيب الوضعيِّ والمراس النظمي فكأنَّ القوم في عهدها كانوا قد اخذوا باسباب الحضارة فحالُهم واضحة أنَّها آخذة بالاستقرار لبناء لغةٍ تتسع في موضوعها للإعراب عن الفكر والصوَّر والمشاعر ولنا بمقام شعراء العرب في الأدب القديم الدليلُ المؤيِّدُ الواضح

ومن المثبت ايضاً ان عربَ الجاهلية سبقهم شعرهم الى التاسِ بالذوق الحضريّ والتحكُّكِ بالحياة الاجتماعية وذلك بفضل الاسواقِ وتزعيم الشعراء في قيادة الذوق البدويّ وترويض الطباع الخشنة . ومن أنعم النظر ، وكان على علم واسعٍ باللغة ، رأى انّ قديمَ الشعر العربيّ يغلبُ فيه الطبعُ على الصّناعة بينما حديثُه تغلب فيه الصّناعة على الطبع وهذا الرأيُ من حيث الديباجة واللفظ ؛ وما إن تلمس شيئاً من تنخل الألفاظ و تعمّد تحسينِ السبك او التعمّلِ فيه احياناً ، في مثل شعر زهير بن ابي سلمى وابنه كعب وزميلها الحطيئة ، حتى تقرأ انّ بعضَ البلغاء العرب أمثو اهؤلاء وامثالهم عبيدَ الشعر ؛ إذ انّ الطبع البدويّ والذوقَ العربيّ العميم يميلان الى السجيّة المرسَلةِ كما هي الحال في معظم ما نقرأ لفحولِ الشعر القديم ، فهم مفطورون على خلال اشهرُها الصدقُ المنطوي على استقلالِ الفكر والصراحةِ والشجاعةِ الادبيّة خلافاً لما اقتضاه طابعُ الحضارَة من التكلّفِ بعد ان استبحر عمرانُ الدولة العربيّة .

وصادفت بواكيرُ الشعرِ العربيّ اقبالاً عظيماً عليها لما في الإنشادِ العربيّ من الايقاعِ والجَرَس ؛ فتفاخر العربُ بشعرائهم وتبادلوا التهاني بنبوغهم فعَلت منزلةُ الشاعر واصبح عندهم بيتُ الشعر ميزانَ كرامةٍ في القبائل ومذياعاً عظيمَ الصدى وحافزةً مفضّلةً في الاحوال التي تستدعي استفزازَ الهمَمِ واثارةَ العصبيّات وقد كان للشعر احكامٌ مقبولةٌ كأحكام القضاء .

قال الباقلاني في اعجاز القرآن المطبوع في مصر :

« إن العرب بدأوا بالنثر وتوصّلوا منه الى الشعر وكان عثورُهم عليه بالاتفاق في الاصل غيرَ مقصود اليه فلمّا استحسنوه واستطابوه ورأوا الاسماعَ تألفُه والنفوس تقبله تبعوه وتعلّموا وتكلّفوا له ؛ فنبغ فيهم الشعراء واقبل الناس رجالاً ونساء على حفظ اشعارهم ورواية اخبارهم والتفاخرِ بانشادِ القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة والاستشهاد بكل بيتٍ من ابياتها عند الحاجة ؛ فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم واخبارهم وحكمهم وشاهدَ صوابهم وخطأهم وانزلوا الشاعرَ البليغَ منزلة

الامام الذي يُهتدى بنبراس قريحته ويُفزَعُ الى رأيه في مشاكل الاقضية ومُعضلات الامور . فكانت كلمةُ الشاعر هي الكلمةُ العليا وقوله أمضى من السيف واحدَّ من السِّنان وحكمهُ نافذاً كحكم الشرع في القضاء وربَّما رفع الشاعر بالبيت الواحد عزَّ القبيلة او هدَّمهُ ؛ كما وقع لشاعر قبيلةِ انفِ الناقة بعد أن كان اسمُها مجلبةً للعار بينَ القبائل »

نستعين بهذا الرأي للباقلاني في تأييد رأينا في منزلة الشاعر العربي القديم ، وان كان في صدره ما يبدو ، لاوَّل نظرة تُلقَى ، ما يجعل الشعرَ أحدثَ من النثر عهداً ، فذلك اعتماداً على كون النثر مجلى المقاصد العادية والمعبِّر عن المتناولات اليومية الاوَّل ؛ وصريحةٌ في رأي الباقلانيِ أسبقيةُ الشعر قِدماً في بناء صرح الادب العربي

واوشك الشعرُ ان ينحصرَ فنُّه قديماً في خاصته العرب لأنَّ لغة الشعر توجب وجودَ الذوق والانفة وحضورَ الذهن المرهف وهذه قلَّما تتيسَّر للسُّوقة ايَّامَ شيوع « الأُميَّة » في الأقطار العربيَّة وسائر البلاد . والأُميَّةُ تعني آنذاك جهلَ الكتابة حين لم تكن صرفيَّةُ العربيَّة قد تاطَّخت باللَّحن والعُجمة .

ولكثرة ما ارتفعت منزلةُ الشعر في العرب اخذ الكُهَّان والعرَّافون الزاجرون والمتطبِّبون واصحابُ الحكم ينظمون الشعر او يتحدَّونه باقرب انواع النثر اليه وهو ما نعرفه اليوم بالسجع .

هذا في الجاهلية أمَّا في الاسلام فقد انفسحت حلبة الشعر فدخلها بعض الملوك والامراء والعلماء وقادة الحروب . وكأني بالخليفة عبدالملك بن مروان قد تغلغت الى قرارة نفسه فصاحةُ شعر الاخطل في الدفاع عن مُلك بني اميَّة فقال لابنه الوليد : « انك يابنيَّ لا تصلُح للحكم في العرب وانت تُلحِن » ثم خصَّه بعلمٍ وعزَلهُ في دار .

وبلغ من محبة خلفاء الاسلام الادبَ عامة والشعر خاصَّة ان قام بين الخلفاء ان قام بين الخلفاء العبَّاسيين شاعر قيل عنه : « هو افضل شعراء بني هاشم » وهذا الشاعر هو الخليفة عبدالله بن المعتز ولي عهد المقتدر ، المعروف ، بابن المعتز ، وفيه قال

صاحب الاغاني : « انه كان في شعره رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين ، فان فيه اشياء كثيرة تجري في اسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين » .

اما ابو فراس الحمداني فهو سيد من اسياد القافية العربية ولا سيما في شعر الانفة والنزعة الارستقراطية اللبقة . ولكن الرؤساء من الأعاجم ، إبان انحطاط الدولة العباسية ، غضوا من قدر الشعر اذ عدوه هجنة في الرئاسة وغير لائق باصحاب القدر الرفيع والمراتب العالية بعد ان جعله بعض المتكسبين في العرب ، او بالاحرى من الشعراء ، سلعة للارتزاق ووسيلة للكسب والزلفى الى الملوك والولاة واصحاب النفوذ .

ولا أرى حسناً ان تفوتنا الاشارة الى ان بعض عباقرة العلم في العرب كالطبيب ابن سينا ، المولود سنة ٩٨٥ م ، عني بالشعر عناية لم ترفعه الى درجة المبرزين في المنظوم العربي ولكنها جعلته ، في قصيدة واحدة ، (هبطت اليك) ، سابقاً موطئاً للنهج الرمزي في الربع الثاني من القرن العشرين ، في البلاد اللبنانية السورية ، فانتجعوا اساليبه واغترفوا من معينه الغربي عامة والفرنسوي خاصة ظانين انهم يطرفون العربية بالجديد في خزانتها الشعرية في حين ان عينيته « الرئيس » حافلة برمزية ترضى عنها الفلسفة ويغتبط بها الشعر ، وفي رمزه عن النفس البشرية « بالورقاء ذات التنزه والتمنع الهابطة المحل الارفع » اشارة جلية الى التوفق في الذوق التلميحي المعروف بالرمزية .

ولقد احسن شعراء الأندلس الى العربية بتتويجهم الشعر العباسي الزاخر بالفكر المثقف والصورة المستفدة بتناحي مستطرفة لم تعرف فيه قبلهم ، وبشقهم في الشعر طريقاً مباشراً الى العاطفة والذوق وبجعلهم شعر الوصف اقرب ما يمكن من الطبيعة مثال الوصافين والفنانين ، وفي هذا جانب من الثروة الادبية قدرها لنا الفرنج حق قدرها نذكر ، على سبيل الاشارة الى هذا التقدير ، ان المسيو رينة دوميك ، في كتابه المدرسي الفرنسي ، نوه بفضل العرب الاندلسيين على الفرنج ، ولا سيما ايطاليا واسبانيا وجنوب فرنسا ، في ايقاع البيت واتزان القافية وفي ورقة الغزل وحلله اليهم الامثال والملح والحكم والقصص الهندية المعربة . ويؤيد قول هذا العالم الفرنسوي ان

الامم الاوروبيّة استمرّت الى نهاية القرن الحادي عشر للميلاد محرومة من خزائن الشعر وفنون الكلام تاركين الى الصومعيين والرهبان والاساقفة امر الاشتغال بالعلم والادب في باكورتيهما اشتغالاً سطحياً في اكثر الاحيان .

وربّما كان للتماس العربي الاسباني — الايطالي اثر في ايقاظ شاعريّة كلوب دوفيكه الاسباني الذي بهر عالم زمانه باكثر من الف وسبعمائة رواية شعرية ، وشاعرية صاحب الكوميدية الالهية المتقدم ذكره بين اقطاب الشعر العالمي .

ولكنّ الشعر العربي أذاه وحط من قيمته ، كأدب عالمي ، الاسراف في التعثّل اللفظي عند طوائف غير قليلة من الشعراء في عصور مختلفة زمناً وحضارة وبقدر مايظهر التعثّل في الادب يبعد عن هز النفس واشعار الذهن بما يرمي اليه الناظم .

شخصية الشاعر

ملاكها : العقل والخيال والابداع

لست احاول ، في هـذا الجزء من البحث ، ان اقبض على القمر إذ قد يكون القبضُ على القمر اسهلَ لدى فويقٍ من ادباء لبنان وشعرائه « الشباب » ، من تعريف الشاعر او الاحاطة ولو بيسيرٍ من المناهج الفنيَّة التي يرتادها ناظماً . على ان راى هذا الفريق ومن متَ اليها بصلة الادعاء للشاعر خروجهُ عن دائرة التحديد والتعريف لا يمنع من ان نتمثَّلَ للشاعر شخصيَّة تتألف من عناصر رئيسيَّة يتمُّ عدُّها ان لم يتم ضبطُها . فالشعر لا ، لا يخرج عن كونه مُدّخراً من الادب وكلُّ مُدخر ادبيّ يجب ان يدخل في نطاق التعريف والدرس وان لم يصلح للدخول في هذا النطاق فنبذُه أولى .

لقد تخيَّل العرب قديماً شيطاناً لعظماء شعرائهم ؛ فجعلوا لقيس بن الملوح شيطاناً يُنطقه شعراً رائعاً ؛ وتمثَّل هذا التخيُّلُ حديثاً فاذا بهذا الشيطان يبدو شخصاً مسرحياً في رواية « مجنون ليلى » لشوقي وعدل العرب عن تخيُّل « شياطين الشعر » الى ادخال عباقرة الشعر هالة النبوءة فاذا « بحاران » يستهلّ قصيدته في حفلة تكريم شوقي بقوله :

« قبسٌ بدا من جانب الصحراء هل عاد عهد الوحي في سيناء »

وضعفت فكرة « الشياطين والنبوءة » بتقلُّص سلطة الدين فاذا بنفرٍ من الشعراء المعاصرين يطلعون علينا باستحداث حالة « اللاوعي » للمحلقين الشاعرين .

وان نحن تخيّلنا « الشيطان » او توهمنا « الايحاء » او استحدثنا « اللاوعي » يجب ان لا نخرج بالشاعر عن محيط هذا المثلث : « العقل والخيال والابداع » او أن نبقيه قريباً منه جهد الطاقة حتى لا نهوي به عن مستوى الموهوبين الخالدين .

وبعد أن نسلّم بقول « دهموسيه » : « الشعر لغة فئة خاصة من الناس » يجب ان نعرض بالايجاز الممكن شخصيةَ الشاعر قائمة على دعائمها الثلاث تتخيّلُ وتعقل وتُبدع وأن نتبيّن كيف تتمكن « هذه الفئة الخاصة » ، اي الشعراء ، من إحلال لغتها في المكانة اللائقة بها في كل زمان ومكان .

قد يتجانس وجه الشاعر الايجاديّ ووجه المثّال او المخترع فكلاهما يستحدث في مخيلته اشكالا وخطوطاً والواناً ويستعرضها في تآليف متنوعة فيبني ويهدم ويهدم ثم يبني مُحيلاً في كل مرة ما يبنيه الى « محكمة ذوقية » إحالةً قد تكون على غير شعور منه بانّ هذا الذي يُبدل هنا ويُسقطُ هناك ويعدّل هنالك إنما هو العقل الحاكم وبقدر ما تكونُ سلطة العقل قويّةً وفاعليّة ذوقه ضابطةً بقدر ما تخرج المادة مطبوعة بطابع العقل المهذّب ؛ وهذا الإخراج الشعريُّ هو المجلى الابداعيّ او ما نعبّر عنه بالسياق البياني في علم البيان .

اذن على هذه « الفئة الخاصة » ، اي الشعراء ، ان تُبدع على ضوء من العقل ليكون لمنظومها سلطانٌ على العقول وروعة في النفوس . والابداع هو صفة من صفات الخالق العظيم معدنُها العقل ومصدرها اللانهاية في القدرة على ضبط الخيال وتنظيمه . وما الكون بشموسه وأجرامه وعوالمه غير المنظومة الكبرى لشاعر الخليقة « الله » ؛ فكيف يتمّ لأديبٍ ان يتفلّت من حدود العقل او ان يدّعي لنفسه حقّ الاستقلال عن سلطانه ثم يرغب في الابداع الشعري والوصول بايقاعه المنظوم الى الذروة التي لا يبلغها الاّ العباقرة من الشعراء المنضبطين في نطاقٍ معقول ؛ يقولون ما يُعصر فيستخرج منه ما يُدعى فكراً يُغذي عقول الناس القرّاء . ولقد اراد دهموسيه الشعر « وليدة القرّاء » طعامُها قلب الشاعر .

على هذا الاساس يتضح لنا ان شخصيّة الشاعر هي المعنى الرئيسي المتبلور في منظومة سواء أكانت شخصيّة ذاتية ام تجريديّة ، ليعكس للقرّاء في كلّ زمان ومكان قيمة ذلك المنظوم ومبلغ ارتباطه بالعصر المقتطف منه وتمثيله المنسوخ عنها ؛ وهكذا كانت شخصيّاتُ كثيرٍ من شعراء العرب القدماء الذين صمدوا للأدب وتاريخه صوراً تاريخيّة ادبيّـة لعصورهم ومعرضاً حافلاً بظاهر بيناتهم . وحيث استرخي ذاك الارتباطُ او زافَ هذا التمثيلُ سقط الشاعر ، ولو من عل ، مقتطعاً بفأس شخصيّته منخلعاً بعوامل تردّدٍ على عقله او انسلاخهِ عن عصرهِ

من مجالي الغنائية في الشعر العربي

من تأثره في ازدهار الدولة العباسية

الغنائية هي المدى الرحب الذي طوفت فيه جماعات عديدة من شعراء العالم، وخاصة شعراء العرق السامي، مجنحي البيان رشيقي الايقاع، يستلهمون سماوة الخيال، ويستندون نوافح الفكر راضين مطمئنين ويستهبون زعازع الغيب مغضبين نابين، وبين هذه وتلك يخضبون ابياتهم بروائع الالوان ويمسحونها بأطياب القلب أو يغمرونها باهواء النفس الجائشة.

وهكذا ارتوى هؤلاء الشعراء من منابع الانسان، فعكسوا شخصياتهم على مرايا نفوسهم بأمانة، او عبروا عن مشاعر من حولهم بعناية او صوروا بعض ما يحيط بهم باتقان. ولئن قصروا من الناحيتين الابداعية والبطولية، فانهم اعاضوا الشعر عنهما بما جاش واستدق من النزوات الداخلية في الانسان واحكموا صيغها في منسجم من التعبير، افضل ما يقال فيه انه صور بيثها اشعاع الذات واستعراض البيئة واستبقاء الحوادث والواح الرؤى الخالدة في حدود القافية المنساقة بالايقاع الموسيقي.

ويظهر في الصف الاول من الغنائيين العالميين شعراء العرب في فجر عصورهم. ومن تناول الشعر الجاهلي بالدرس احس بتراخي الوحدة الموضوعية او بفقدانها، فانثنى الى

ذاته يسائلها : « اين هؤلاء من الادب الموضوعي » ؟ انهم لم يكونوا في تلك المرحلة من عمر الآداب ، منصبين على توجيه معين من الفكر او لون مفروض من الصورة او او تعليل مروض من الحكمة ، بل كانوا يجعلون من شعرهم مذكرات يجمعونها ، رغبة منهم في ادخارها وعرضها عند الحاجة . وانت ان قرأت معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً ، رأيت فيها احتكامه الى ابن هند ، صاحب الحيرة آنذاك الى جانب افتخاره بجذف رأس ذاك المليك الحكم . واذا اخذت معلقة طرفة بن العبد باحثاً فيها اوشكت ان تلمس الفتى الجاهلي اللاهي مرخياً العنان لنزوات الفتوة ماتعاما شاء له الشباب ، موصياً بالمروءة ما عاشت النخوة . واذا عكفت على مطولة زهير تراءى لك الرجل الحكيم يتناول اموره بيسار ويخاطب الناس بمقدار ويبسط لك دنيا من الفهم توشك ان ترقى الى محاولة في رسم الخطوط الاولى لادب الاجتماع .

وبعد ان تطمئن الى نفحة الايمان البكر في شعر لبيد وتنعم بفيء التعزية الزاهدة في عرض الحياة الزائلة معه ، نعبر مرافقين حساناً بن ثابت ، شاعر الرسول ومجاز التحول الجزئي ، بين الجاهلية وصدر الاسلام الاول ، فنُغمر بفيض الركون ونُستهوى بهمس الايمان الموحد .

واذا جئت الصدر الثاني للاسلام اطل عليك ، من عاصمة الامويين ، الاخطل التغلبي محامي السدة الجديدة وشاعر البلاط ونافخ ريح الخمرة ، حاملة عبق الفلسفة «الذهونية»[1] في الشعر العربي . وان لم يحس اصحاب القراءات الخاطفة في « مناقضات » الاخطل وجرير والفرزدق غير هراش وسباب ، وان لم ير بعض المطلعين على مساجلات العصبيات والاحزاب الشعرية التي كان ابطالها بعض كبار شعراء بني امية من جهة ومقدمي شعراء الشيعة من جهة اخرى يومئذ ، غير التفاحم بخبيث القول ، ولاذع التهم فاني لاستطلع فيها ، على ضراوتها ، ان صح التعبير ، دنيا من النزعات وارجوحة من الميول

(١) اصطناع تعبير ايجازي يفسر غاية المسكر التموجية .

ومعرضاً لمراحل حاسمة في التاريخ ، فالشاعر كان في ذلك العهد خطيب زمانه وصحفي حواضره واحزابه وصناجة باديته ومذياع دعوته . ولقد كان الشاعر الاموي ، فوق ذلك ، كان « مقترح [1] » الخلافة بالارث وموجه السياسة بالشعر .

وانت نسينا ان نضع الى جانب ما تقدم ثروة الشعر في الغزل او فيض الحب في الشعر فقد اصبنا الغنائية بسهم في الصميم ، فمن حب بني عذرة شعت خيوط النور في جوانح الانسان المجنح العاطفة ومن روائع عمر بن ابي ربيعة لبست ابكار عرائس القلب لباسها المونق وهفت الى ملاقاة الاحباب مزينة مبرجة مطيبة ساترة نزوات الاباحية بطرف الفن الغنائي .

اجل ، ان الغنائية المؤرخة المدافعة عن الدين المرافعة في سبيل الملك المترجمة عن نزوات القلب في ميوله واهوائه واباءته ، لهي غنائية تحيي العصر الاموي ما استمر القلب البشري نابضاً بالحب وتنسى الى البقاء ما بقيت اساليب الكلام المنظوم انشودة الاسماع في البلاغة .

وما بال الامم تستعرض تاريخها وذكرياتها الحافزة وتبعث حية امجادها واجدادها في نقش على حجر او بقية من مومياء او اشارة باقية فوق جماد . بينما يستوهننا تفهم هذا الغناء في لغة الوحي وموسيقى الاجيال لنضع انفسنا موضع المرافق يخلفي هذا الارث الادبي احياء في اناشيدهم نتحسس فيها وجوه الحياة وخلجات الصدور فكأنها مرافقة الحي للحي .

وما ان بلغت غنائية الشعر العربي ظلال الدوحة العباسية حتى انصهرت فيها احاسيس طوائف كثيرة من الالى اغواهم البيان العربي من الامم التي شملتها بغداد بسيطرتها او الذين أموها موالي او مسترفدين نعم البلاط العباسي . ومد الشعراء العرب جنساً واصلاً اقلامهم فلقحوها بالمذاهب الادبية الجديدة في دنياهم وزينوا نتائجها بفن لم يكن لهم

---

(١) اشارة الى الايماز الذي قول مسكين الشاعر في مجلس معاوية الاول :

« اذا ما المنبر الغربي خلاه ربه فان امير المومنين يزيد »

قبلاً اذ كانوا ما يزالون محافظين على سمات البداوة متأثرين بالطبع وحده ، وذلك الطبع كثيراً ما كانت تغلب عليه السذاجة الحلوة المستجبة النابية عن التخبث والمترفعة عن المتع والمجون التي اصبحت مألوفة في هـذا العصر . ولكن ما لنا وللنقد المسلكي ، ونحن نقصد الى اعلان العهد العباسي مبلغ الاوج في طريق الغنائية العربية ؟

أليس بشار بن برد ، وهو من ابعد الشعراء عن التقيد بواجبات الاجتماع في مختلف مفاريضه وتنوع ضوابطه يطلع على آفاق الشعر من سماء الفن الغنائي مدللاً بشاعرية هي من الخصب والروعة ، في مواكب الخلود ، ولكنه الشعر المستحدث من معادن اللذة ومزيج الاهواء والمنازع ينفجك بعطر من نياسم الفن ، كما تفعل الطبيعة في تكييف عناصر السماد لتملأ المشام بالشذا والعيون بالبهجة والمجالس بروائع الالوان والمزاهر .

وربما انساقت للغنائية بعض شوارد الفلسفة وتفتحت لها بعض مغاليق الفكر كما حدث لابي نؤاس . وانه لمن العجب ان يترسم هذا الخبيث الماتع الماجن مسالك النفس ويستبيح مكنوناتها بضروب من الشعر خلدت متحفاً اثرياً وسجلاً صادقاً حتى الوقاحة في استعراض زمانه ، فهو في خمرياته « خيام » العرب يغرف من تلك الفلسفة الذهولية التي حمل لواءها في الشعر العربي . وهي فلسفة ترافق الصحة والشباب غالباً فتختصر طريق الانسان في مدارج الحياة ، فلا تصله بما قبل الرحم ولا تشغله بما خلف القبر ، وتحجزه ناعماً بما تيسر رخي البال يجني ورود الحياة غير عابىء بقيود الاخلاق .

أليست غنائية العرب الساميين هي التي تفاعلت في نفوس بعض شعرائهم المثقفين فكونت جناحاً آخر للشعر العربي نسجتـه النفوس المؤمنة وحلقت به في جو خاص فكانت الصوفية ، فطلع ابن الفارض وابن عربي وابن سينـا في عينيته ، رسل روح رمزية في البيان الشعري العربي ، ومالت ببعض اعلامها الى الحكومة وطوفت في ارجاء الفكر والتجاريب واستساغت من ضروب الفلسفة اليونانية ما حلا لها فكان ابو تمام والمتنبي وابو العلاء المعري ؟ وهذا الاخير استحق ، على عماه ، ان نسميه ابصر الشعراء في ظلمات النفس واهداهم الى اسانيب الانشاد الساخر من الحيـاة والمهوي بكبرياء .

الانسان عن اوجها الى حضيض الضعة والاستخفاف حتى القول بانقراض الجنس البشري

اما الغنائية التي كانت تصدر عن منابع النفس مختلطة بتأثرات الحواس ، والتي بدأت تنفح الادب العربي بروائعها ، منذ اقدم عصوره ، فقد كان رامسو خطوطها الاول اوساً وزهيراً وكعباً والحطيئة فعرف هؤلاء ومن نسج على منوالهم بشعراء « المدرسة الاوسية والزهيرية » المشهورة في الاغلب ، بتصويرها الحسي .

وضعف شأن هذه « المدرسة » في صدر الاسلام الثاني خاصة ، لانصراف الشعراء في تلك المرحلة ، الى خدمة السياسة والاحزاب والخلافة انصرافاً ألهاهم عن العناية بهذه الناحية المصورة ، فلم يتسنّموا فنها بارزاً الا في الغزل الناهض ، على عذريته واباحيته الى تمثيل العواطف والمحاسن والمغامرات تصويراً بلغ حدود الروعة فبقي ، حتى اليوم ، مثالاً يرمي اليه في بدائع جميل وعمر وغيرهما من الغزلين المقدمين .

وكان على خزانة الشعر العربي ان تنتظر البحتري وابن الرومي لتعرض الغنائية لوحات دقيقة الالوان واضحة الوجوه مستطرفة الفن ، فتبدو فيها ملى شرف من الخلود ملائمة بين الجمال والموسيقي وبين الايقاعين اللفظي والمعنوي ، ومن محاسن هذا الوصف اخذ كثير من شعراء العرب ، الى ان طلع الشعر الاندلسي موسوماً بفاتن الطبيعة مسترخياً للعواطف يلين بلينها ويأسى لاساها ويتفلت ، من قيود القافية الموحدة لايقاع الابيات فكانت الموشحات وكأن بعضها « قطع الرياض »

وجماع القول ان العرب لم يستقم لهم سبيل الى الملحمة في نطاقها الواسع فحملوا لواء الغناء في لغة خلقت طيعة لتمثيل حالات النفس البشرية وقرضوا شعرهم في اوزان لها من موسيقاها وانسجام قصيدها ما ارتفع بخلود ايقاعها الى مرتبة ابداع الملاحم ، ومشت على العصور الطويلة تحتضن ماتستجدثه الحواضر من انغام ، وهي وليدة الحداء في البادية ، وهكذا باهت الصحراء بابداع الغناء أخاً للوحي وجناحين للخلود .

صلة الشعر العربي

بالملوك والعظماء

اذا كان الادب لسان الأمم المعبّر عن درجة رقيّها وانحطاطها بصورة خاصّة فانّ الأدباء المرتبطين بملوكها وعظمائها ، ولا سيّما الشعراء منهم ، هم اكثر الناس ايضاحاً لمبلغ الحريّة الفكريّة والنزعات التطوريّة التي تنشأ في بيئتهم . وهم المعلنون درجة الاستقلال الفردي الادبي في كلّ عصر من العصور ؛ سواء أكان ذلك منهم عفواً او عن تعمّد .

ومن طالع بعين المنعم البصير مدائح زهير في هرم بن سنان والحارث بن عوف ، والمنخّل اليشكري والمتلمّس في صاحب الحيرة ، والحطيئة في علقمة بن علاثة والوليد بن عقبه والزبرقان ، والنابغة في آل غسان ، وجرير في الحجاج ، والفرزدق في سليمان بن عبد الملك ، والشاعرين الكميت والسيد الحميري في بني هاشم ، وابي نواس في بعض الخلفاء ، ومروان بن ابي حفصة في المهديّ وابي تمام في المأمون والمعتصم والواثق والبحتري في المتوكل ، وابي الطيب المتنبي في كافور وبعض الامراء غير سيف الدولة ، وابي فراس في اهله وقومه ، رآهم غالباً ، ان لم نقل دائماً ، شعراء اغراض ومناسبات

لا تلامس حاجة الادب المثلى في شيء. يذكر ولا يدخلون بنتاجهم المدحي الى غور من اغوار الحياة دخول مستكنه ؛ وقلّما تشعر ، وانت تقرأ هذا الادب الشعري ان نزوة ادبية صِرفة حدَت بالشاعر الى النظم . وما أبلغ صراحة ابي فراس الحمداني حين قال عن مدحه :

« نطقت باهلي وامتدحت عشيرتي ، فلا انا مدّاحٌ ولا انا شاعر »

وما اجدر بعض من تقدم ذكرهم وكثير غيرهم بان يقولوا انهم ابواق تعلن فضل بعض الناس عليهم او تتغنى بامجادهم ومآثرهم صادقة مرة وكاذبة مرات فندر ان يرتفعوا بهذا المدح عن درجة المتكسبين او المستجدين او المسترضين الى مرتبة الشعراء الخالدين عالمياً او الى مرتبة انفسهم في المناحي الشعرية الاخر التي وافقت هوى في نفوسهم .

ولكي يستطيع الشاعر ان يرضي الادب والممدوح ويسم شعره بسمة الادب الحر يجب ان يكون مزدوج الشخصية ازدواجاً ترجح فيه طبقته المستقلة ادبياً على شقيقتها المربوطة بالممدوح سياسة او زلفى وما كان من منظوم شعراء الملوك والعظماء صرف مدح او فخر او اعلان رأي سياسي او غير ذلك مما تدعو اليه عوامل السلطان المهيمن ، يتزل عن القدر الذي ترضى عنه دراسة الادب الصحيحة ؛ فلا يؤلف جزءاً قيماً خالداً في خزانة الشعر العربي على الرغم من الدوافع التي تحاول رفعه الى تلك المنزلة ، منزلة الخالدين ، اذ ان حاجات الادب مقدمة على حاجات الاشخاص في بناء هيكل لشعر الخالد ولان الافراد ، مهما علت منزلتهم وسمت اغراضهم ، لا بد لهم من ان يضطروا الشاعر للاهتمام بعرضهم عن جوهر الحياة وبقضاء شأنهم الخاص واهمال شأن الادب العام .

فيتّضح مما تقدّم ان صلة الشاعر المادح المتفرّد بعظيم او عظماء من سادة عصره متوقف توثقها على مؤهلات واستعدادات متجمعة في نفس الشاعر ومزاجه وعلى قابلية الممدوح الكبير او المغيث الباذل لشخصية المادح الاديب او قرباه منه بشتى الاواصر واجتزاء في البحث والعرض نعمد الى الكلام على اربعة من جياد من يمثلون الشعر العربي

في بلاط الملوك ومجالس العظماء وهم :

— ١ — النابغة الذبياني في بلاط الحيرة .

— ٢ — الاخطل التغلبي في بلاط بني امية .

— ٣ — ابو الطيب المتنبي في بلاط بني حمدان .

— ٤ — احمد شوقي في بلاط مصر « الخديوي » .

وهكذا يكون لنا مرور المامي بأربعة شعراء يؤلفون سلّماً في مجالي البيان العربي في مختلف عصوره وادواره ، فهؤلاء توفقوا لجعل جو البلاط عنصراً شعرياً وادخال حياة الامراء في حيز حياة الادب .

النابغة الذبياني

في بلاط الحيرة

النابغة الرجل :

دخل زياد بن معاوية الحجازيّ المولد والذبيانيّ المترعرع المعروف بالنابغة بلاط الحيرة [1] فاتصل بالنعمان ابي قابوس ، صاحب الحيرة ، وكان قد نبه ذكرُه في الشعر وعظم قدره في قومه فكان النعمان لا يعدل به شاعراً ، ممن اختلفوا الى بلاطه وكلهم من اقطاب الشعر العربيّ في ذلك العهد كالمتلمس وطرفة والمنخل اليشكري وحسّان بن ثابت وغيرهم ، وله ديوان شعر عني بـه المستشرق « هار تويغ ديرنبورغ » H. Derenbourg سنة ١٨٦٩ وشرحه وعلّق عليه .

وقيل ان حمل عليه بعض المحظوين في بلاط الحيرة ، لعداوة وقعت او لحسدٍ تفاقم فوشي به الى ابي قابوس ؛ ودرى النابغة بالوشاية فهرب الى بصرى لاجئاً الى الحارث الغساني يمدحه . ولم يطل به الزمن حتى شرع يرسل اعتذارياته المشهورة الى ولي نعمته اللخمي موطئاً سبيل العودة اليه . وكان ان عاد الى الحيرة عزيز المكانة عند النعمان ولكن هذا ادركه الأجل فلم تدم القربى الثانية طويلاً .

(١) الحيرة اول بيئة تماس بين الثقافتين العربية والفارسية « بحث لنسيم نصر » المكشوف عدد ٢١٢

ويرى بعض المحققين في تاريخ الادب آراء جديدة لا تتفق ومنقول الرواة والمؤرخين القدماء منها في هذا الموضع من الكلام رأيٌ للدكتور طه حسين وهو : « ان غضب النعمان على النابغة كان لاسباب سياسيَّة » فالنابغة مدح الغساسنة وهو يختلف الى بلاط الحيرة والمناذرة والغساسنة أبناء عم ، كما يذكر التاريخ القديم ، ولكنهم بعد تركهم اليمن استمروا في عداء طويل شديد ؛ وكان من البديهي كما يرى الدكتور طه ألا يرضى صاحب الحيرة عن شاعره المفضَّل الاقرب ان هو مدح امراء غسان اعداء دولته لاعتقاده ان تقديم النابغة عنده على سواه من الشعراء سبب كاف موجب لاختصاص المدائح الذبيانيَّة ببلاط الحيرة دون غيره .

على ان المقصود هنا بالذات ليس درس هذين الرأيين وترجيح الواحد على الآخر فكلاهما معقول مقبول ولكنَّ المهم لدينا الآن هو عرض شخصية النابغة وشاعريته صالحتين للبروز في بلاط الحيرة الى حد بعيد اجمع عليه مؤرخو الادب ودارسوه كما اجمعوا او بالاحرى رجحوا رأياً آخر وهو : « النابغة هو أحد الثلاثة المقدَّمين في الجاهلية وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة وهذا من الاشراف الذين غض الشعر من قدرهم كما غض من قدر امرىء القيس . »

شخصيته :

« قذاها انَّ صاحبها بخيلٌ يحاسب نفسه بكم اشتراها »

يقال ان هذا البيت بأكورة منظوم النابغة ؛ وسواء أكان البكر ام الاخير فان فيه نزوة اباء صادقة تشير الى ان الرجل الشاعر يحمل في قرارة نفسه نزعةً اريستقراطيَّة جعلت له من البيت الذي خرج منه والمنزلة التي ادركها بكفاءته وبروز قدره ؛ والى هذا أشار حين ردَّ على توعُّد زرعة بن خويلد بقوله :

« حولي بنو دودان لا يعصونني وبنـو بغيض كلهم انصاري »

وبنو دودان من بني اسد وبنو بغيض من بني عبس واسد وعبس من كرام العرب

والمجلين في حوماتها فهو اذن من اسياد اسياد العرب .

والنابغة ممن بلوا الايام فكانت انفوسهم محكاً يطوفون في بأساء الحياة ولينها بين الشامتين والحاسدين الكثر ؛ ولقد خرج غالباً من تجارب دنياه محافظاً على كبر نفسه متحفاً الادب العربي بمقاطع شعر هي من ابكار الحكم العربية والمراس الوفيع منها قوله :

المرء يأمل يعيش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد طول العيش مره
وتخونه الايام حتى لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بي ان هلكت وقائل لله دره

ولكم يخلق بنا ان نلحق بالشاعر الى ميدان غزله حيث يكبو به جواد الكبر فنمسكه بذله ونجذبه من اطراف صنعته وان لم نظفر به ذليلاً هناك فنذير جداً ان ندركه كذلك في مكان آخر . ولقد تعقبت النابغة فوجدته حريصاً على قدر نفسه حتى في مواطن اذلال الحب وخنوع المولهين فاسمعه يقول :

« لولا حبائل من نعم علقت بها . لاقصر القلب عنهـا اي اقصار
فان افاق لقد طالت عمايته والمرء يخلق طوراً بعد اطوار »

فهو في بيته الثاني غير امرىء القيس ، امير كندة الشريد ، حيث يقول في معلقته :

«تسلت عمايات الرجال عن الهوى وليس فؤادي عن هواك بمنسل »

وان كان شاعرنا الذبياني قد تواضع في خطابه الملوك ، كما سنرى ، فهذا التواضع هو الطريق الاولى الى قلوب اصحاب التيجان وارباب الامارة وهو نقطة الدائرة من بحثنا في اختصاص بعض الشعراء بتديح بعض البلاطات وقرباهم من اصحابها عنوة على غيرهم من جياد المنظوم العربي العالي ، وهذا التواضع لا يعني اهمال الشاعر اباءته وقيمة نفسه لانه ان انحدر الى ذلك الدرك تلتوي دونه طريق البلاط .

شاعريته :

الخيال الشعري محدود الارتقاء كما يرى بعض العلماء ؛ وهذا هوميروس ما يزال نابغة الشعراء وقد مرَّ على وفاته نحو ثلاثة آلاف سنة والنابغة الذبياني وامرؤ القيس وغيرهما من قدماء الشعر العربي ما يزالون نماذج شعر جزل ومتحدّى خيال طبيعي خصب على الرغم من مطاوي الزمن البعيد الذي يفصلنا عنهم كأحياء نمر على هذه الارض وعلى كره من البداوة التي عرفوها واشتملت على شخصياتهم والحضارة والعمران اللذين نُمتَّع بهما ونحسُّهما مكيفين لمعنوياتنا شئنا أم أبينا .

فأنى الزمن بحقوبه وللأدب في تجديده أن ينال من قيمة هذه الابيات الخالدة الروعة :

« أخلاقُ مجدك جلَّت ما لها خطرٌ في البأس والجود بين العلم والخبر
متوَّجٌ بالمعالي فوق مفرقه وفي الوغى ضيغمٌ في صورة القمر »

. . . .

وانت ربيعٌ ينعش الناس سيبُه وسيفٌ أُعيرته المنيةُ قاطعُ
فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت انَّ المنتأى عنك واسعُ

فهي ابيات غنية عن الشرح والتأويل والتفسير ؛ فأخلاق المجد والتتويج بالمعالي ، والضيغم في صورة القمر ، والربيع المنعش بسيبه . . . والليلُ المدركُ الهارب منه . . . كل هذه المعاني مما يدهش الناس وبينهم الملوك ملوك الحكم المفتقرون الى ملوك الكلام ؛ ولا سيما الى ملك شعر كالنابغة الكريم المحتد المدرك كيف يستكبر على النعمان ويرضيه مادحاً ومتواضعاً في آن واحد كما في قوله :

« وكنت امرءً لا امدح الدهر سوقةً فلست على خير اتاك بحاسد

اختصاصه ببلاط الحيرة :

لقد كان الملوك وما يزالون حتى اليوم ، في معظم بقاع الدنيا ، يحرصون على ان لا

يستوزروا ولا يأخذوا في خاصتهم وحاشيتهم ولا يقربوا منهم غير النبلاء والامراء ؛ ولما كان الشاعر قديماً يرفعه شعره الى رتبة قرب الملوك، ولو كان وضيع النسب فأحر بالنابغة ان يحرص النعمان ، صاحب بلاط الحيرة ، على اختصاصه بمدائحه دون سواه ؛ وأخلق بالنابغة ان يخص بالشعر المنسلخ عن نفسه ملكه الحيري فينقطع عن الشعر بعد وفاته على حد قول الرواية .

ولو استعرضنا بعضاً من الشعراء الذين كانوا يختلفون الى بلاط الحيرة ويزاحمون النابغة على منزلته فيه معتمدين اساساً للشاعرية ما قدمناه ؛ العقل والخيال والابداع ، سهل علينا ان ندرك لماذا اصطفاه النعمان ، ابو قابوس ، دون سواه مدركين ايضاً ان المناذرة اجمالا ذوو ميزة عالية في تقدير الادب وبصورة خاصة الشعراء ؛ فحسان بن ثابت شاعر كبير لكنه دون النابغة مدى خيال وان وازاه عقلاً ومال الى مقارنته ابداعاً في الجاهلية ؛ والحارث بن حلزة اليشكري قد يرجح عليه عقلاً ولكنه يهوي عن معادلته خيالا وابداعاً ؛ والمتلمس تنبذه اباءة الملوك وعظمتهم من دائرة خاصتهم لشر لسانه قبل ان تنظر في قيمة شعره ومدى خياله ورونق روائه وما الى هذه من جوهر الشعر وعرضه .

فمؤهلات النابغة للحظوة الاولى في بلاط الحيرة ، كثيرة منها ماهو شعري ومنها ما هو شخصي ؛ ولكي تتكتل لنا فكرة مجسمة عن القدر الذي احرزه في عيني النعمان ابي قابوس نأخذ بالرواية التالية :

« اغار النعمان على بني ذبيان فأخذ منهم وسبى سبياً من غطفان واخذ عقرب ابنة النابغة فسألها من أنت ؟ فقالت : « انا بنت النابغة » فقال : « والله ما احد اكرم علينا من ابيك ولا انفع لنا منه عند الملوك » ثم جهزها وخلاّها ثم قال : « والله ما ارى النابغة يرضى بهذا منا » فاطلق لهم سبي غطفان واسراهم « فمدحه النابغة بالدالية التي مطلعها :

أهاجك من سعداك مغنى المعاهد بروضة نعمي فذات الأساود

وسواء عندي أقرّ الاصمعي هذه الرواية او لم يُقرّها فهي ، ان لم تكن واقعة ، فممكنة الوقوع ؛ تتمثل فيها كرم النابغة عند النعمان ونَفعَهُ له عند الملوك ، ونتبين ان الشاعر لم تهو شخصيته في عيني ممدوحه فيدرك الملك ، على كره من كبرياء الغازي السابي ، ان شاعره لا يرضى منه باطلاق سبية ، بل باخلاء سبيل السبايا والاسرى من غطفان جميعاً . وهكذا نرى ان كرامة النابغة في عيني النعمان تُلغي نتائج غزو كامل ولا تبقى منها الا على قيمة الغلبة المعنوية .

ولو شئنا ان نحرص على رضى الاصمعي ، لامكننا ان نعرض الذبياني الشاعر في بائيّته الاعتذارية شخصية حافلة بدالّة المادح على الممدوح وبعقلها الواعي المستكبر وابداعها البياني في مثل قوله :

لئن كنت قد بُلّغت عني وشاية ... لمبلغك الواشي أغشُّ واكذبُ
ولكنني كنت امرءا لي جانبٌ ... من الارض فيه مستراد ومذهب
ملوكٌ واخوانٌ اذا ما اتيتهم ... أحكم في اموالهم وأُقرَّبُ
ألم ترَ ان الله اعطاك سورةً ... ترى كل ملك دونها يتذبذب
لانك شمسٌ والملوك كواكب ... اذا اطلعت لم يبدُ منهنَّ كوكبُ
ولست بمستبقٍ أخالا تلمُّه ... على شعث اي الرجال الهذَّبُ
فان الكُ مظلوماً فعبد ظلمته ... وان تكُ ذا عُتبى فمثلك يعتبُ

وكأني بالادباء والمؤرخين الذين قالوا عن النابغة انه ؛ « احد الاشراف الذين غض الشعر منهم » عولوا كثيراً على مثل هذا البيت الاخير ؛ «فان الكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمته . . » او أعاروا كثير انتباه لرواية حمّاد القائلة ؛ « ان عودة النابغة الى النعمان كانت رغبة في نياق النعمان العصافيرية وهي من خيار النوق » غير آبهين لقوله :

« ملوكٌ واخوانٌ اذا ما اتيتهم ... أحكم ، في اموالهم واقرّب

والى ان الملوك هم اسياد الناس ، شعراء وغير شعراء ، وخطاب اصحاب القصور يستدعي احترام جانبهم وخفض الجناح لهم توفراً على الكرامة عندهم ؛

وغير مقدرين ان عطايا الملوك هي اكثر الاحيان اشعار بقدر المقدمة له وقيمته عندهم ز وهكذا كانت حال النابغة في بلاط الحيرة ان لم تكن كذلك في ظلال الغساسنة فروابط الاختصاص بالبلاط توفرت له في كنف اللخميين اكثر منها في كنف اصحاب بلاد الشام ؛ فاسمعه يقول في باب النعمان ابي قابوس وقد منعها لحاجب عصام من الدخول على الملك المشرف على الموت :

« ألم اقسم عليك لتخبرني أنحمول على النعش الهمام
فاني لا ألام على دخولي ولكن ما وراءك يا عصام
فان يهلك ابو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام
وغسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام »

ألا تشعر ان وراء قوله : « فاني لا الام على دخولي » لهفة المحب المخلص ودالة الحبيب المبعد ؟ وهذا العيش الاجب الظهر » بعد ابي قابوس « ربيع الناس وشهرهم الحرام » يعطيك الدليل المقنع بان النابغة كان عالقاً بالنعمان دون سواه وان النعمان الذي قدمه على سواه من الشعراء كان مدركاً ذلك الحب ومقدراً افضلية شعر الذبياني على غيره من الشعراء المجيدين .

وما النابغة على نعمته بعطايا صاحب الحيرة وعزته بقرباه منه وعلاء قدره بتحكيم عكاظ الا واحد من هؤلاء الذين اجاد ، هو نفسه وصفهم في كفاح دهرهم اذ قال :

من يطلب الدهر تدركه مخالبه والدهر بالوتر ناج غير مطلوب
ما من أناس ذوي مجد ومكرمة الا يشد عليهم شدة الذيب

وخلاصة القول ان نابغة ذبيان وجد طريق اختصاص النعمان به بما اجتمع له من نبل اصل وجودة شعر وقيمة اخلاق ورجاحة عقل ؛ مؤهلات لم تجتمع لغيره من معاصريه فقدرها له حق قدرها ملك الحيرة ولذا رأى الدكتور طه حسين أن الاشراك في هذا الاختصاص كان السبب في الجفوة الموقتة التي حصلت بين الشاعر وصاحبه الكبير لا الوشاية بأذية شعر كما تخبرنا الرواية القديمة او بالاحرى الروايات القديمة .

الاخطل التغلبي

في بلاط بني امية

الاخطل الرجل :

هو غياث المكنى ابا مالك والملقّب بالاخطل من قبيلة تغلب النصرانية في معظمها ان لم يكن في مجموعها وتغلب هذه هي التي قيل فيها : « لو ابطأ الاسلام لاكلت تغلب العرب » . تفتقت في نفسه براعم الشاعرية الفذة ولما يزل حدثاً يقيم في الحيرة فشرع يناوىء ، في مهاجاة مرّة ، كعباً بن جعيل ، شاعر تغلب قبله ، فظهر الاخطل الناشىء على خصمه الكبير ؛ فاصبح شاعر تغلب غير مدافع . وامتد له سلّم الرقي الشعري حتى لقب بـ « شاعر بني امية » و « شاعر العرب » .

وأولع ابو مالك بالخمرة فكان لا يجيد النظم الا اذا شرب ؛ ولكن شعره ، على الرغم من رائحة الخمرة العبّاقة منه ، ظل عفيفاً فقال مشيراً الى هذا : « ما قلت شعراً تستحي العذراء ان تنشده اباها »

منزلة الشاعر في عصر الاخطل :

لقد طلع الاخطل على الشعر في فترة من الزمن ارتفع فيها الشعر العربي الى مرتبة لم يبلغها من قبلُ ولا بعدُ ؛ لان انتقال الدولة من الحجاز الى الشام وخمود الرغبة في التقشف الديني انتقلت بالشعر العربي من درك الاهم-ال

والاغفال الى ذروة الانشاد والعزة . ولبلوغ الشعر الاموي هـذه الدرجة من الشأن العظيم اسباب اشهرها :

١ — الرجوع الى المنافرة والعصبيات الجاهلية لتغشي الاحزاب السياسية والنزعات الخلافية .

٢ — الفتور في الورع الديني والتراخي في حفظ القرآن الكريم

٣ — اغداق العطايا من بيت المال على الواقفين قرائحهم على خدمة سياسة البيت المالك او تعظيم بيعتهم واعلان قانونيتها .

٤ — رغبة الخلفاء انفسهم في نظم الشعر على انواعه غير مكتفين ببعض ابيات حماسة كفعل الخليفة ابي بكر ، اوبنتف من شعر الحكمة شأن الخلفاء عمر وعثمان وعلي

٥ — مباراة الموالي السادة العرب بالفصاحة العربية شعراً لاعلاء شأنهم عن طريق المنظوم العالي .

٦ — لجوء فقراء البادية الاذكياء الى التلهي بقرض الشعر عمّا وصلوا اليه بسبب ضغط عمال الامويين في البادية وارهاقهم اياهم بالضرائب ؛ وربما لجأ الى نظم الشعر بعض اغنياء الحجاز المحظور عليهم التدخل في سياسة الدولة كعمر بن ابي ربيعة .

على قاعدة هذه الاسباب تبوأ الشاعر الاموي الموهوب مرتبة سامية ألجأت الخليفة الاموي الى ان يتسلّح به الى جانب سلاحه العسكري وتحوطه بعمال قساة دهاة من امثال الحجاج وابن ابيه ؛ لعلمه ان مدح الشاعر له دليل على رضى قبيلته عن سياسة الدولة لانه يُعبّر عن رضاها وسخطها ، والقبيلة تعتبر إكرام شاعرها وتقديره اكراماً لها وتنويهاً بمقامها .

وقبل ان نلج الكلام الخاص بالاخطل نورد رواية صغيرة ذكرها صاحب الاغاني ، المنبع الفياض بتاريخ الادب العربي ، ندرك منها مبلغ القدر الذي اجتمع للشاعر في ذلك العهد ، قال الراوي ما مفاده :

ان معاوية لما عزم البيعة لابنه خشي مغبة هذا الحدث الانقلابي في انتقال الخلافة

وخاف ان لا يحسن الناس الثقة بهذا التدبير ، لا سيما ، والمرشحون للخلافة كثر ؛ وبلغه في امر هذا الحدث ما يسوءه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبدالله بن عامر وغيرهم ؛ فدعا يزيد بمسكين الشاعر وامره ، وهو شريف من بني تميم واحد خصماء الفرزدق في الهجاء ، أن ينظم شعراً وينشده في حفل من مجلس الخليفة معاويه . وكان ان اجتمعت وجوه بني امية في بلاط الشام فدخل مسكين ومثل امام صاحب العرش الاموي وابنه يزيد عن يمينه تحيط بهما حلقة من اشراف الناس وامراء امية وكبرائهم ، وانشأ يقول قصيدة منها :

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟
بني خلفاء الله مهلاً فانما يبوّئها الرحمان حيث يريد
اذا ما المنبر خلاّه ربه فان امير المؤمنين يزيد »

فقال معاوية ؛ « ننظر فيما قلت يامسكين ، ونستخير الله » ؛ فاقرّ الحاضرون بيت الشاعر الاخير . وسار هذا الشعر في العرب فنال « المسكين » عطايا غير « مسكينة » .

ولكن مسكيناً ، على مقامه في الشعر ، لم يكن الشاعر الذي يرغب فيه القائمون على سياسة البيت الاموي المالك ، فطلبوا كعباً بن جعيل ليهجو لهم الانصار . ولما لم يتوفق يزيد الى اقناع هذا بالاختصاص بهم وهجو الانصار ، دلّه كعب على الاخطل متوقعاً من ذلك وقوع الشاعر الشاب في التهلكة ؛ فكان ان لمع نجمه واخمل ذكر كعب المضمر له السوء وكثير غيره من الخصوم .

شخصية الاخطل :

« قوم هم قتلوا ابن هند عنوة عمراً وهم قسطوا على النعمان »

من هذا المنبع ، الذي انتفخ به الفرزدق على خصمه جرير في ذكره تغلبيّة الاخطل صديقه ، استمد هذا الشاعر النصراني جراءة على خصمائه وجسارة على اعدائه واعداء اصحاب العرش الاموي . ولكم يتراءى لنا ، من خلال ابيات شعره ، مزهواً بنفسه

وقومه وشعره شأنه حين يصف نفسه مثلاً يجرُّ الذيل زهواً على اميره عبد الملك بن مروان في قوله :

« خرجت أجر الذيل زهواً كانني عليك امير المؤمنين امير »

او مباهياً بجراءته وقوة بيانه ذائداً عن حياض الخلافة الاموية اذ يقول :

« بني امية قد ناضلت دونكم ابناء قوم هم آووا وهم نصروا »

ومما لا جدال فيه ان قابلية البيت الاموي المالك تذوقت الى حد بعيد مواهب الاخطل التغلبي واعجبت بشعره وذوده وراقها مزاجه المرح على رغم من ريح الخمرة الممتزجة بانفاسه دائماً وقطرها المتحلب من لحيته احياناً .

شاعريته :

اجمع اهل زمان الاخطل على انه امدح الشعراء الذين شاعت قافيتهم الى اطراف المملكة العربية في ظلال بني امية ، وقد يكرن اهجاهم في عرف كثير منهم ؛ يشهد له بصحة هذا الرأى الاخير قول جرير عنه ، وهو الدُّ خصومه : « ادركت الاخطل وله ناب ولو ادركته وله نابان لاكلني » ؛ وفوق هذه الشهادة وذلك الاجماع قول بعض الادباء في عصر الشاعر : « لو عاش الاخطل يوماً واحداً في الجاهلية لكان اشعر العرب » .

بيد انني انوه بما تقدم ، عن طريق العرض المنقول ، غير معتمد في الكشف عن شاعرية الاخطل الا على درس المدى الشعري وعلى تقدير طاقة الشاعر على خلق هذا المدى مع الاخذ بجمل الاعتبارات والمهيئات التي تمهد له طريق الخلق وتقدير الحواجز التي تقوم في وجهه فتحجز عليه انفساح هالته الشعرية . ولقد تغلبت شاعرية الاخطل على حواجز كثيرة ؛ فكان ، على رغم من غربة الدار والدين والعصبية وبعض العادات والاخلاق ، يرود دنيا من الشعر حافلة بالخيال والعقل والابداع قال فيها حماد الرواية معجباً : « وما تسألوني عن رجل حبب الي شعره النصرانية . »

واني ارى هذه الشاعرية النشوى و قد « جازت حكومتها » على كره من خصمها جرير اذ قال :

« يا ذا الغباوة ان بشراً قد قضى الاَّ تجوز حكومة النشوان »

فاخذت تتدفق بالمنظوم الرائع محببة اليك خيال الجاهلية في روائه الاموي ، معلنة لك قانونية انتقال الخلافة المحمدية بلسانها المسيحي ، مشيدة باوصاف الخمرة وخصائصها عند سدة الخلافة وفي ناديها . شاعرية تصلب مرة كشاعرية الفرزدق ولاتنبو نبوتها عن الذوق ، وتلين اخرى كشاعرية جرير دون ان تهوي مثلها عن مقارعة النفس الجاهلي .

اختصاص السياسي ببلاط الامويين :

للامويين ميزة خاصة وهي كثير اهتمامهم باحياء لغة العرب وآدابها ؛ فكان خلفاؤهم يعنون ، علاوة على اعباء الملك والفتح وقمع الفتن ، بحماية العلماء والادباء ولذلك علا في ظل دولتهم شأن الرواة والشعراء واجروا لهم العطايا السنيَّة من بيت مال الامة وبالغوا في اكرامهم مبالغة قد لا نحسن تمثلها اليوم في عصر الصحافة الضخمة والاذاعة العجيبة .

غير ان الحاجة التي الحت على يزيد وابيه معاوية ليأخذا شاعراً مبدعاً في خاصتهما هي بحق اشد من حاجة النعمان ابي قابوس الى جذبه نحو بلاطه النابغة الذبياني ؛ فصاحب الحيرة اراد ان يحتفظ لنفسه باوسع شعراء زمانه تدليلاً بعزة دولته ، ولذلك ساءه ان يدلل شاعره بمنعة دولة خصومه الغساسنة انستياء زال او اوشك حين عاد اليه النابغة نادماً صادقاً في حبه ومجدداً مدائحه ، اما صاحب دمشق من بيت ابي سفيان فكان ينتظر من شاعر بلاطه ان يقضَّ مضجع الخصوم الهاشميين وغيرهم المتألبين على دولته بما هو ابلغ من المدح الخالص وما هو اثبت من صرف تعداد الفضائل والامجاد كان ينتظر ما ينتظره اليوم صاحب الدعوى في ايامنا هذه من محاميه الساهر على

الدفاع عن قضيته المحيط بموضوعها من كل وجوهه . نعم ، كان يطلب من الاخطل ان يكون المحامي عن الخلافة الاموية ، وان يجعل من قوافيه جريدتها الجائبة فجاج مملكتهم العربية آنـذاك لبث الدعوة فابدع في كل ذلك واجاد فبلغ الذروة مما عرف في الشعر العربي ، بالهجاء السياسي . وكثيراً ما كانت مهاجاة الشعر في ذلك العهد تتحول الى مشاتمة كما حدث المهاجرين والانصار على لساني شاعريهم سديف وشبيب ؛ فكان الاول منهما يخرج في جماعة من موالي بني هاشم في مكة والثاني في جماعة من موالي بني امية ، فيتناشدون الهجاء فيتبادلون السباب وينتهون بالتجالد بالسيوف ؛ وهذا ما عرف عندهم بالسديفية والشبيبية .

ولنا بباكورة دفاع الاخطل عن العرش الاموي شاهد ينطق بوطأة شعره على خصوم آل سفيان وهي تلك الرائيّة ، العاصفة بمشاعر الانصار المتألبين على معاوية والتي منها :

« خلوا المكارم لستم من اهلها وخذوا مساحيكم بني النجار »
« ذهبت قريش بالمكارم والعلى واللؤم تحت عمائم الانصار »

ويبلغ هذا الهجاء الناسف مسامع الانصار فيفد النعمان بن بشير الانصاري ، خطيب اليثربيين وشاعرهم ، غاضباً هائجاً على معاوية ويدخل مجلسه وينشده الميميّة المشهورة التي اوشكت ان تقتطع لسان الاخطل ، ارضاء للأنصار الغاضبين ، لولا ان فاء يزيد عليه وحماه ؛ والتي منها قول الانصاري عاتباً مطالباً بعقوبة الهاجي :

معاوي الا تعطنا الحق تعترف لحى الازد مشدوداً عليها العمائم
ويشتمنا عبد الاراقم خلّة وماذا الذي تجري عليك الاراقم ؟
فما لي ثأرٌ دون قطع لسانه فدونك من يرضيه منك الدراهم

ومنها قوله متوعداً مهدداً :

واني لاغضي عن امور كثيرة سترقى بها يوماً اليك السلالم
اصانع فيها عبد شمس وانني لتلك التي في النفس مني اكاتم

فما انت والامر الذي لست اهله ولكن وليُّ الحق والامر هاشم

اما عهد الذروة الادبية والادلال على صاحب البلاط من حياة الاخطل فهي مرحلة اختلافه الى مجلس عبد الملك بن مروان، اكثر الخلفاء الامويين استرخاء في العنت الديني واكثرهم فيئاً على شعراء دولته وادبائها، وفي طليعتهم الاخطل المحرز من اعجاب الخليفة به مادفعه الى ان ارسل يوماً مولىً من مواليه ينادي على رؤوس الملأ: « هذا شاعر امير المؤمنين، هذا شاعر العرب ». وربما لم يكن الاعجابُ بالشاعر وحدَه الباعثَ على تلك المناداة، اذ انَّ نقمة الخليفة عبد الملك على اعدائه، قبائل قيس وشعرائهم، جُمعت الى الاعجاب في تفضيل الشعراء غير القيسيين ممن هم دون الاخطل مرتبةً في الشعر، فنال هذا ما نال بصفته رأس الشعراء الموالين وأصلت الالسنة في مقاومة المناوئين، ولنا برائيته التي أكسبته لقبَ « شاعر بني امية » ما يكشف لنا بعض الكشف عن حرص صاحب العرش الاسلامي على شاعر مسيحيّ والتي منها قوله:

الى امرىء لا تَعرّينا نوافله أظفره الله فليهنأ له الظفر
الخائض الغمرة الميمونُ طائره خليفة الله يُستسقى به المطر »

فمثل هذا الشعر خليقٌ بان يُمتع صاحبه بما يشاء من نعم العرش وتقديره، أظفره الله فليهنأ له الظفر »؛ وفي خليفة الله يستسقى به المطر » اعلان لقدسية الخلافة وحقها المنزل المنتهي الى عبد الملك وتشريف له أعلى من التشريف الذي نُميَ الى أسلافه أمويين او راشدين، فقبل الاخطل لم يخاطب احدٌ خليفةً باكثر من « امير المؤمنين » او « خليفة النبيّ »، فاذا بممدوح شاعرنا يخاطَب ب « خليفة الله يستسقى به المطر »

ومن لا يؤمن بقدسية المراتب والاشخاص، على يد الشاعر، يدعوه هذا الى الايمان بحق آخر اقرب إلى العقل، وهو انتهاء الخلافة قانونياً الى بني امية، بصفة معاوية الذائد عنها ضد المتآمرين عليها، دعوة صريحة المؤدى، جريئة الهجوم اذ قال:

« ويوم صفين والابصار خاشعة أمدّهم اذ دعوا من ربّهم مَدَدُ
على الالىٰ قتلوا عثمان مظلمة لم ينهم نشدٌ عنه وقد نُشدوا »،

فيلوح المتأمل في هذين البيتين تجريمُ علي في مقتل عثمان أروع صورة وابعد مدى منه في وقوف معاوية خطيباً في جماعة من الناس ،وفوق منضدة امامه قميص عثمان الملطخ بالدم واصابع زوجه المبتورة بسيف الغادر . وكأنّ شاعر امية لا بل محاميها المبدع العاقل ، لم يكتف بخلال القدسية والقانونية لخلافة مولاه ، فانبرى يعلنها على الملاء كريمةً مغيثة في خيال جاهلي خصب ورُواء. « ذبياني » التقى فيه بالنابغة ، في داليته ، جريناً مجارياً على الرغم من تهيب الشعراء الاسلاميين كلّ شعر جاهلي فاصغَ اليه يقول :

« وما الفرات اذا جاشت حوالبه ... في حافتيه وفي اوساطه العشر
وزعزعته رياح الصيف واضطربت ... فوق الجآجئ من آذيه غدر
مستحنفرٌ من بلاد الروم يستره ... منها اكافيف فيها دونه زور »
يوماً باجود منه حين تسأله ... ولا بأجهر منه حين يجتهر »

وهكذا يكون الاخطل قد حقق للأمويين ما كانوا يرجونه من خصّه ببلاطهم في شيوع مثل هذا الشعر في حواضر العرب وباديهم ، فهو انشاد رفيع ودفاع مجيد كسف شعراً كثيراً لطوائف متنوعة من الشعراء. أخذت بناصر الامويين او تظاهرت بذلك زلفى الى السلطان ،وافحم الخصوم ووجد طريقاً مباشراً الى نخوة العرب الفريدة وحساستهم الدقيقة ،فكان بهذا الاختصاص الواسع راساً لمن ولجوا هذا الباب من بعده ؛ وان كان النابغة اسبق الى الالتحاق بالبلاط ، فالاخطل لحق به في مهمة اشق ، وطريق اكثر وعورة ، فجاء مجلياً في حرب الكلام الشعري .

المتنبي وامارة بني حمدان

المتنبي الرجل وشخصيته :

هو احمد بن حسين بن عبدالله الصمد الجعفي الكندي المكني بأبي الطيب والملقب بالمتنبي ، عربي العرق قحطاني العشيرة ؛ أما كنديته فهي نسب الى محلة بالكوفة وليس الى قبيلة كندة المعروفة .

وقد غمزه احد الشعراء في اصله فقال فيه :

أيّ فضل لمن يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيا

ولكنّ هذا الغمز سهل الهدم على راس غامزه به ؛ اما الغمزة الرئيسية التي تصيب من المتنبي هدفاً مجسماً فهي اسرافه في اعلان كبريائه كقوله :

« ان اكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد »

بيد ان المتنبي نفسه لا يبدو لك انه يريد ان يعرض علينا ذكر اب عرفه له ، ولكنه ، بمناسبة وبغير مناسبة ، يعرض علينا قدر نفسه المشتملة على خلال ومواهب ضاق هو نفسه في تعدادها .

اما نسبه فهو مغمور بالغموض اكثر من حسبه فقول بعضهم انه حمداني الام لا

يركن اليه كل الركون ، وليس في قوله ؛

« ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي اَمَا »

برهان واضح يكشف لنا عن حقيقة تلك الام التي ولدت رجلاً قال في نفسه واهله والباحث عن اصله ؛

« انا ابن من بعضه يفوق ابا الباحث والنجل بعض من نجله »

ومن قال عنه ابن رشيق في « عمدته » : « ثم جاء المتنبي فشغل الناس وملأ الدنيا » (١)

ولنهمل النسابة بقدر ما ؛ لانها كانت ضرورة قديمة عند العرب وغيرهم من الامم فاخذت تسقط بمرور الزمن وتجدد وجوه الحياة ؛ فقد اصبحت ضعة النسب مفخرة للنابغين وحافزة تحدو بهم تسميها الفلسفة : « مركب النقص »

واني لذو ميل عظيم الى ان ادّعيه عربي المنبعين ؛ الحسب والنسب ، بعد قوله :

« واني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف ان تسكن اللحم والعظما »

وانه لمن المهم في هذا الكشف الموجز عن متحدّر الشاعر وشخصيته الالمام بمدارج صباه وثقافته ومنازعه استعانة بذلك على تفهّم الاستعدادات والمؤهلات التي هيأت منه شاعر امير وامير شعر .

ولقد أعانت دراسة المتنبي في مكتب من مكاتب العلويين على تكوين شخصيته الادبية مزيجاً من عناصر اشهرها :

ا — الميل الى الفن الشعري

ب — الاستعداد لتناول الناس بالسخرية والهجاء والمديح

ج — الانحراف الى الشيعة .

وكان خروج ابي المتنبي بابنه صبياً الى البادية مهيّئاً من مهيئات المتنبي الشاعر وفي

---

(١) الشائع ان ابن رشيق لم يقل هذا اعجاباً ولكنه على كل حال كلام يقال بالمتنبي .

تبدّيه هذا قال بعض الرواة :

« وقد خرج المتنبي من الكوفه مع ابيه الى البادية فأقام فيها حيناً ثم عاد منها وقد نما جسمه وعقله وفصح لسانه واصبح فتى يملأ العين والاذن » .

وفي هذا الفتى الذي يملا العين والاذن نلمس شخصية الشاعر المتوثب والثائر الطماح الذى يشق طريقه بين مخاطر المغامرات الكبيرة ، وفي مد وجزر من لين الدهر وشدّه عليه وعلى ؛ كره من جيوش الحساد والاعداء الذين جمعهم عليه بكبريائه وخروجه عن حدود الاطمئنان اليه .

وهذه الشخصيّة المتفشيّة في مسالك حياته وابيات شعره ، تأثرت بعوامل سياسيّة وعوامل دينيّة واخرى ادبيّة واقتصاديـة فطوفت بصاحبها في بلاد كثيرة تتجاذب اعيانها وامراءهـا مرّة ويتجاذبونها اخرى ؛ ولكنها في كل حالة من حالاتها كانت تتعرض لذم الناس والدنيا حتى قال عن نفسه :

« ألا ليت شعري هل اقول قصيدةً فـلا اشتكي فيها ولا أتعتبُ

شاعريته :

لقد ظهرت على المتنبي في مستهل حياته الشعرية نزعة التقليد التي كانت من مفاخر الشعراء ، حتى في عصر المتنبي ، اذ كانوا يعتقدون القدماء اساتذة شعر ومتحدى لمن كان ينظم في الادب المولد ؛ فدائح ابي الطيب في التنوخيين ، اسياد اللاذقية وكثير غيرهم ، قبل اتصاله بامير طبرية ، بدر بن عماد ، واطلاله على افقه الشعري الخاص به ابتداء من قصيدته المشهورة :

« أمغفر الليـث الهزبر بسوطه لمن اذرخرت الصارم المصقولا » ،

كلها تقريباً محاولات بلوغ شهرة واعلان قدرة على الشعر ؛ ونفسه المستكبرة الطماحة ، كما قدمنا ، كانت أبعد مرمىً من مقام هؤلاء ومدى شهرتهم وشهرتـه حولهم ؛ لذلك تطلعت شاعريته ، وقد استوت على متفتق مواهب متزنة عالية بعد خمود نزعة الاستقلال وخيبة المصلح ، الى ممدوح يغذيها بالمال والشهرة والمقام الرفيع لقاء شعر

هو في المديح نسيجٌ وحده .

واوسع الميزات انتشاراً في منظوم المتنبي اثنتان وهما :

١ – حسن المقابلة والمناقضة .

٢ – لباقة المبالغة والطباق .

وهاتان الميزتان وسائر الميزات الأخر تقوم كلها على جُهدين وهما :

١ – جهد الفن . ٢ – جهد العقل .

أما الجهد الفني فهو الذي حبَّبه الى الملوك والامراء ، بعد اجتيازه مراحل غلواء الصبا وشرود الآراء ، بما اكسب شعره من اسباب المتانة والبلاغة ورُواء النعوت الملوكية واما الجهد العقلي فهو الذي جمع له المعاني الضخمة والمباني المتينة وذهب به الى اغوار الحياة مشرفاً على ارسطو ومرَّ به على صنوف التجارب فجرى الكثير من ابياته أمثالا على ألسنة الناس وتناول ديوانه الشُراح والكتاب والشعراء فكان لهم فيه شغل شاغل مرَّ عليه الف عام ولما يزل مستمراً .

والمدهش في ابداع هذه الشاعرية انها غلفت جفوة كبرياء صاحبها ، وثقل ظله احياناً ، بوشاح من جلال الشعر ورُوائه وجعلت من منظومه معرضاً لحكم الحياة ؛ فاذا الأدباء عامة ، والشعراء منهم خاصة ، متفقون في الاقبال على ديوانه ، اي ديوان المتنبي ورواية شعره اكثر من شعر سواه من اعلام الشعر العربي في مختلف العصور .

دولة بني حمدان :

دولة بني حمدان عربيَّة الاصل ينتهي نسبها الى تغلب بنت وائل . ولما ولي الموصل عبدالله بن حمدان ، المكنى بابي الهيجاء في خلافة المكتفي ، أعلى مكانة أسرته فأخذ امراؤها يتعاقبون على الموصل ، تصلح طاعتهم للعباسيين حيناً وتفسد آخر ، الى ان غلبهم على امرهم عضد الدولة بن بويه فانبثوا في البلاد من هضاب ايران الى ضفاف النيل واستقر احدهم ، وهو الامير سيف الدولة ، في حلب فتملك عليها ثم على حمص ؛ ولهامع الاخشيدي كافور مواقع حربية من اجل الولاية على دمشق ظهر فيها

اولا ثم عاد فاخفق .

اما الواقعات الكثيرة التي دارت رحاها بينه وبين قواد الروم في ضواحي حلب فهي أيام ابتسم فيها الدهر للأمير الحمداني غالباً فعزّ ملكه وذاع صيته .

ولقد كان امراء حمدان في معظمهم ادباء وشعراء يجمعون الى عزّة الامارة ذوق الاديب ، والى بطش السيف حكمة القلم ، وفي مقدّمة الحمدانيين الادباء ابوفراس الشاعر المعروف وابن عمه الملك سيف الدولة الاديب الناقد ممدوح ابي الطيّب المتنبي .

وابرز ميزات هذا العصر ، المعروف في تاريخ آداب اللغة بالعصر العباسي الثالث وفي تاريخ الحكم بعصر الامارات والدول المحليّة ، ثلاث ميزات رئيسية هي :

ا – اضطراب اركان الدولة .

ب – بلوغ الفكر شأواً بعداً من الحرية والنضج والانتشار .

ج – سيادة اللسان العربي على كره من النفوذين الفارسي والتركي .

المتنبي يدخل بلاط بني حمدان

ضعفت يد الخليفة العباسي عن ضبط بقاع مملكته المترامية الاطراف فتعدّدت فيها الدويلات والامارات ؛ وكان لكل دولة قاعدتها وفي كل قاعدة بلاط يجتهد سيده في ان يجعله جديراً بالمباهاة به ، وفي مقدّمة ما باهى به ملوك ذلك العهد كثرة ارباب الاقلام في خاصتهم ولا سيما الشعراء منهم .

ولكنّ سيف الدولة كان يجمع في بلاطه عدداً كبيراً من سادة الفكر العربي مدفوعاً بعامل آخر اسمى من دافع المنافسة الاميريّة برجال العلم والادب وهو عامل اللذة الادبية الشخصية ؛ لذة الاديب بعقد حلقات الادب حوله والمتعة بجالي الفكر وروائع البيان حتى قيل في صفوة خاصته : لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من الشعراء .»

وكانت ريح المصادفات قد قذفت بالمتنبي ، الجوّابة في الحواضر العربية ، الى انطاكية لما جاءها سيف الدولة زائراً سنة ٣٣٧ هـ . ، فقدّم ابو العشائر الى ابن عمه

الامير الحمداني أبا الطيب مُطريا مواهبه معظما قدره الشعري . فاصطحبه الملك الى حلب حيث طلع فجر الشاعر وانبثت قوافيه في مشارق بلاد العرب ومغاربها

وكان من عادة الشاعر اذا جاء يمدح ملكاً ان يقبل الارض بين يديه ويقف امامه مُنشداً ، فرغب المتنبي الى مولاه الحمداني ان يلغي له هذا المألوف ؛ فاجاب طلبه حباً به وكرامةً له واوصى به مَن رَوَّضه على الفروسية والطراد والمثاقفة واجزل له المخصصات وأغدق عليه العطايا من مال وخيل وجوار وضيع ؛ فقوّلت هـذه المِنح ابا الطيب في داليته المشهورة مثل هذا :

« تركت السُّرى خلفي لمن قلَّ ماله وأنعلتُ افراسي بنعماك عسجداً »

واكثرت حساده فقال في القصيدة نفسها مثل هذا :

« أَزل حسَدَ الحُسَّاد عني بكبتهم فانت الذي صيّرتهم لي حُسَّدا »

وقد يلوح لدارس المتنبي ان اميره الجديد هو الذي عوّده حياة الامراء فقد كان الى هنا لم يتعوّدها لكثرة ما لحق به من انكسارات نفس أقساها غضّة السجن ومألوفها الفرار من الغاضبين والحاسدين والمكافأة على القصيدة بالتزر من المال بشهادة قصيدته « الدينارية » ؛ فاسمعه يقول عند قراره من ابن رائق :

« ذلَّ من يغبط الذليل بعيش ربَّ عيش اخفّ منـه الحمامُ
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميّت إيـلامُ »

على ان انَّ تلك الانكسارات ، التي لم تغضّ من كبريائه إلاّ في الظاهر ولم تثن عنانَ طموحه إلا في الساعات السود ؛ لم تمرَّ به دون فائدة فقد علّمته بالاختبار شيئاً من المصانعة ومرّسته بالتجربة والاخفاق على الصبر في مرافقة العظماء بعد أن وثق من عجز وسائله الشخصيَّة عن بلوغ ما يرمي اليه من المراتب العالية والغنى الكثير ؛ لذلك نراه يدافع عن نفسه في مرافقة ذوي السلطان بمثل قوله في سينيته في ابن زريق الطرسوسي :

خير الطيور على القصور وشرها يأوي الخراب ويسكن الناووسا »

او في ميميته في مخاطبة الشيب المبكر الى لمته :

لم الليالي التي اخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم »

رافق المتنبي سيف الدولة زهاء تسع سنوات فكان، على قربه منه او بعاده عنه، بعد ان غرق في نعمه ، منجذباً الى مدحه لا ينفك يذكره في شعره؛ اما مادحاً مباشرة فعله على القرب دائماً ،واما تلميحاً او غير مباشرة فعله على البعد في مصر وغيرها من البلاد؛ فيتراءى لنا من هذا المدح ان علاقة الشاعر بامير لم تعد اتصالا عادياً يغلب عليه الفتور فعلاوة على صلات الشعر والمدح قام بين الرجلين تبادل الحب والتقدير .

وللمتنبي في سيف الدولة بضع وثمانون قصيدة لو جمعت وحدها لكانت ديوان شعر وكل واحدة منها تاريخ وصفي لموقف من مواقف الامير الحمداني المشهورة او يوم من ايامه العزيزة . وقد عني بامر هذه القصائد التاريخية عناية مفضلة الكلام المستشرق بلاشير منوها بقدرها .

وابو الطيب شاهد عيان في كثير من ايام جهاد ممدوحه العربي الكبير فهو شاعر مدح يعرض علينا الادب الواقعي لا الخيالي في وصف المعارك وتكوين بطولة سيف الدولة مجسمة في الصور القلمية ، وللقيام بمثل هذا الوصف ، ولكن بصورة صحفية قلما ترتبط وثيقاً بالفن الادبي الدراسي ، خلقت وظيفة المرافقين الصحفيين العسكريين في هذه الايام . وقد تكون قصيدته « على قدر اهل العزم تأتي العزائم »، فضلى قصائده التي وصف فيها سيف الدولة قائداً محارباً وتكفي الاشارة فيها الى قوله :

« هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعرف اي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها يتلاطم

....

اتوك يجرون الحديد كأنما سعوا بجياد ما لهن قوائم
فلله وقت ذوب الغش ناره فلم يبق الا صارم او ضبارم

وقفت وما في الموت شك لواقف كانك في جفن الردى وهو نائم

. . . .

الا ايها السيف الذي ليس مغمداً ولا فيه مرتاب ولا منه عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى وراجيك والاسلام انك سالم
ولم لا يقي الرحمن خدّيك ما وقى وتفليقه هام العلى بك دائم » .

أعادت الى ذاكرتي هذه الابيات القول المأثور للدكتور طه حسين في المتنبي واميره : « ما نفقده من حرية المتنبي في فنه تعوضه علينا عبودية المتنبي لسيف الدولة ان صح هذا التعبير » .

وكأني بالدكتور شاء ان يقسو بالشاعر وينصفه في آن واحد فخلط له فنه بالعبودية واعترف له بالفن تحت اسم ذليل ؛ وهذا شأن الدكتور وغيره ممن شدوا على المتنبي اذ نزاهم ، رغم شدهم عليه ، ينتزع منهم الاعتراف بالفن والشاعرية كما كان ينتزع مقامه عند العظماء ، ولا سيما عند سيف الدولة ، عنوة على كيد الحساد والاعداء والناقدين .

وهنا استعين برأي آخر للدكتور ثم اشير الى وقوعه في تناقض آراء او شبه تناقض قال الدكتور : « سيف الدولة والمتنبي اثنان فرض كل منهما نفسه على عصره هذا بشعره وذاك بسيفه » وقال في مكان آخر من مؤلفه ، « مع المتنبي » صفحة ٥٣٩ :

« الفرق بين ابي العلاء والمعري والمتنبي ، هو الفرق بين الفيلسوف والرجل العادي »
« وان الناس ظنوا المتنبي فيلسوفاً وهو ليس من الفلسفة في شيء . » ، والدكتور نفسه يقول في سابق رأي له ، قال ص : ٣٨٦ « ان المتنبي اثرّ في التشاؤم العلائي وما نشأ عنه من فلسفة تأثيراً عميقاً بقوله :

« يدفن بعضنا بعضاً ويمشي اواخرنا على هام الاوالي
وكم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال »

ويقول الدكتور عن هذين البيتين :

« اذ ما تأملت الزمان واهله تيقنت ان الموت ضرب من القتل

وما الدهر اهل ان تؤمّل عنده حياة وان يُشتاق فيه الى النسل؟»

وقال صفحة ٣٨٨ ؛ « مع المتنبي » « قد وثب فيها الى معنى فلسفي رائع فتح لابي العلاء باباً من الشعر جاء فيه بالاعاجيب » .

وفي صفحة ٣٩١ يقول « لا ندع هذه القصيدة دون ان نرى الابيات التي تصور علم المتنبي بطبائع الناس وحرصهم على الحياة وتفتح لابي العلاء باباً من الفلسفة والتفكير» وهذه الابيات التي تملا الصفحة المذكورة منها :

آلة العيش قوة وشباب فاذهما وَيْلها عن المرء ولّى
ابداً تسترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا

ويقول في صفحة ٣٩٧ « ثم ينتهي المتنبي بهذه القصيدة الى فلسفة مظلمة حزينة اقل ما يقال فيها انها تصور شكه في خلود النفس وانحرافه بهذا الشك عن طريق المسلمين ، واحساسه التعب من هذا الشك والارتياب وتفتح باباً اخر لشعر ابي العلاء. »

ويقول في ص ٤٠٧ :

فذي الدار اخون من مومس واخدع من كفة الحابل
تفانى الرجال على حبها وما يحصلون على طائل »

« وفي هذين البيتين بذرة من بذور الفلسفة العلائية . وهذه القصيدة عندي من اجود شعر المتنبي وهي من القصائد النادرة التي تحلو فيها روح الشاعر ويخف ظله على القارئين والسامعين . وما ارتاب في انها ضمنت وحدها له حب سيف الدولة لانه وجد فيها جمال الفن ، وقوة الوصف ، وذكاء القلب ، واللباقة السياسية التي تمكنه في ان يغيظ الخصوم دون ان يضطر الى الحرج »

ويقول في ص ٦٠٥ في صدد الكلام على ابيات من ميمية الشاعر في وصف الحمّى بمصر : « والمتنبي في هذه الابيات يبلغ الفلسفة العليا » . . .

فكيف يكون ابو الطيب فاتحاً لابي العلاء كل هذه الابواب والنوافذ الفلسفية ، ودافناً له البذور الفلسفية الكثيرة ، ومنتهياً الى فلسفة عليا ، والى فلسفة مظلمة حزينة

اقل ما يقال فيها انها تصور شكه في خلود النفس و و و . . . » ثم « لا يكون من الفلسفة في شي ؟ ! » . . .

وجار الدكتور طه حسين بك على ابي الطيب ايضاً في « مرافقته » له حين قال عنه :

« ان المتنبي لم يصف احداً كما وصف نفسه حين قال :

واذا ما خلا الجبان بارض طلب الطعن وحده والنزالا »

وهو الذي يقول في ص ٥٦٦ من كتابه الآنف الذكر « مع المتنبي »

« وكأن الشاعر قد ضاق بمصر بهذه النعمة الهادئة وهذا الامن في مصر ، وشاقه صليل السيوف وصهيل الجياد. ولكنه لم يستطع ان يجهر بما يجد من ذلك فاتخذ الاعرابيات كناية عنه ورمزاً له » .

وفي ص ٥٦٩ :

ليت الحوادث باعتني الذي اخذت مني بحلمي الذي اعطت وتجريبي »

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب »

« فهذا الكلام من اروع الشعر واجمله . . . فهو يؤثر الصراحة على النفاق ، وهو يؤثر الصدق على الكذب ، وهو يؤثر ان يكون شجاعاً تؤذيه الشجاعة وتعينه على ان يكون مغامراً يغر نفسه بالامال والاوهام »

وفي ص ٥٧٣ :

« يدبر الملك من مصر الى عدن الى العراق فارض الشام فالنوب

اذا اتتها الرياح النكب من بلد فما تهب بها الا بترتيب

ولا تجاوزها شمس اذا شرقت الا ومنه لها اذن بتغريب »

عن هذه الابيات يقول الدكتور : « وما اظن ان احداً يقدر ان المتنبي كان يعبث بهذا المدح وانما لهجة الشاعر هنا صادقة صريحة ، تدل على ان اعجابه بهذا الامير الذي سمت به همته وحدها من اسوأ الحالات الى تدبير هذا الملك الواسع العريض »

وكل امرىء يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

عن هذا البيت في الصفحة ٥٨٠ يقول الدكتور :« في هذا البيت نفس ابي الطيب كلها فهو رجل لا يحب الا نفسه وهو سعيد حيث وجد من الناس الجميل ، وهو راض حيث وجد المجد والعزة، فاما الوطن والاهل والاصدقاء. «فتأتي بعد ذلك ولعلها لا تأتي :

وقال عن المتنبي « الجبان ! » في ص ٥٩٧ : كان طائراً تعود الهواء الطلق والفضاء العريض ، يرتفع في السماء ما اتاحت له قوته العنيفة ان يرتفع ، فاذا ما اراد الراحة لم يقع الا على الشواهق من قمم الجبال ، فاذا هو الان سجين في قفص ضيق، لعله من الذهب المرصع بالوان الجوهر ، ولكنه قفص على كل حال فكان جواداً مرحاً فرحاً حياته كلها في العدو والغزو ؛ ولذته كلها في المرح والنشاط ، لا يطمئن الا اذا مضى امامه البيد والمهامه مستمتعاً بحر النهار وبرد الليل ، او اقتحم الصعاب والعقاب الى العدو ثملاً بنشوة الظفر او ألم الهزيمة . »

وقال في الصفحتين (٣١٩ — ٣٢٠) « وقد امتاز جماعة من الشعراء في هذا الوصف ويكفي ان نذكر ما قاله ابو تمام وما قاله البحتري ولكنّ ابا تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء الذين سبقوا المتنبي لم يفرغوا لهذا الفن كما فرغ له ولم يقفوا عليه اكثر جهدهم كما وقف عليه اكثر جهده . ثم هم لم يشتركوا في الجهاد كما اشترك فيه المتنبي ولم يشهدوا مواقعه كما شهدها المتنبي ، ولم ينعموا كما تنعم المتنبي ، ولم يشقوا كما شقي المتنبي بما كانت هذه المواقع تعقب من انتصار او اندحار . »

وفي ص ٥٥٤ يقول الدكتور : « لم يهمل المتنبي في مصر إلا فناً واحداً هو خير ما احسن من فنون الشعر وهو تصوير الجهاد بين المسلمين والروم »

وبعد هذا كله فالمتنبي « متنبي الدكتور نفسه » جبان ! ! . . .

اما قول الدكتور ايضاً في ص ٥٤٠ من « مع المتنبي » « فللاحظ انه لم يصف احداً كما وصف نفسه حين قال :

« من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام »

فهذا قولٌ جائرٌ ايضاً لانّ الدكتور نفسه في كامل جزءي كتابه المتقدّم الذكر

يظهر لنا ان هذا الشاعر مصانع طموح يهوي به الطموح مرات ويعلو به مرة ولكن ليس الى المرتبة التي يريدها لنفسه . وان كان قد جاء مصراً فلا ارى ان مجيئه اليها صغيراً بالقدر الذي رآه له الدكتور اذ يقول : « ماتت نفس المتنبي او كادت تموت » ص ٥٤١ ؛ فاما ان يكون المتنبي شاعراً فناناً غناء كما نعرفه ويعرفه الدكتور فلا تموت نفس اتحدت بهذه الاقانيم الثلاثة ؛ الشعر والفن والغناء ، وإما ان يكون المتنبي متشاعراً محاولا بلوغ الفن او بكلمة واحدة ناظما فعندئذ نسلم بموت نفسه او بوشك موتها

وكيف يريد الدكتور ان نوفق له بين قوله في : « من يهن يسهل الهوان عليه » وقوله عن المتنبي الشاعر ص ٥٥٠ : « وانما الامر الخطير حقاً عند المتنبي شيئان : نفسه ليعبدها ، والناس ليبغضهم اشد البغض »

وقول الدكتور ص ٥٧٠ وهو مسك الختام : « كل هذه الفلسفة وكل هذا الغناء إنما يثير الشاعرية به الى هذا الحزن الغامض الذي يملأ نفسه »

وكل هذا الاخذ والرد فيما قدمنا ، من الكلام على حكمة المتنبي وشجاعته وضخامة نفسه يعيننا على ان نقدم شاعر بلاط حلب شخصية متفردة بجلال الشعر والتفنن في اغراضه وتنويع اوصافه الملوكية ، تفرض نفسها ، ليس على عصرها فحسب بل على ألف سنة مضت على ذيوع شعرها ، وهو ما يزال حديث القوة عالي الفن باهر الرؤاء . وكأن صاحبها كان مدركاً الى اي حد سيملك هذا الشعر اعجاب الناس حين قال :

« وما الدهر إلا من رواة قصائدي اذا اقلت شعراً اصبح الدهر منشداً »

وسيف الدولة يستحق ان يكون مذياعاً لفضله لسان كلسان ابي الطيب فبلاط حلب في حقيقته امنع جانباً وانبل سيرة من مقر الخلافة في بغداد والاسلام كان بحاجة الى حكومة عربية صرفة تنبذ الشعوبية البغيضة التي حضنتها بغداد وانفقت على شعرائها وادبائها وكثيراً ما اجازتهم ؛ فوجد هذا الشاعر في المتنبي الذي قال فيه ابن الاثير : « اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها وقامت

اقواله للمسامع مقام افعالها حتى يُظنّ ان الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا »

ومن طالب المتنبي بصدق الحوادث كمؤرخ غير متحيز فقد طالب بما هو فوق الممكن ، إذ كان على الشاعر ان يستلّ من الهزيمة انتصاراً لاميره فيتعزّى هذا ويرضى بمثل هذا الشعر :

« وهل يضيرك وقتٌ كنت فارسه وكان غيرك فيه العاجز الضرع
من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعهُ شيء ولا يضع »

ويدخل على نفس الممدوح في قرارتها فيضطلع بامر دولته والقضيّة العربيّة آنذاك فتجيء قصيدته حتى في التهنئة بالظفر مستهلة بالكآبة والمرارة الدفينة كما يبدو في قوله :

« ليالي بعد الظاعنين شكولُ طوال وليل العاشقين طويل
أُبيّن لي البدر الذي لا اريده ويخفين بدراً ما اليه سبيل »

وكثيراً ما عرض بخليفة بغداد انتصاراً لممدوحه ، صاحب البلاط الحمداني ، واعلاناً لفضل دولته على العرب كقوله :

« ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول »

وكم اعانه اسم هذا الامير على ادخاله في باب التورية في كثير من المدائح كقوله :

« لامر اعدّته الخلافة للعدى وصمته دون العالم الصارم العضبا »

او كقوله :

« من للسيوف بان يكون سميها في اصله وفرنده ووفائه
الشمس من حسّاده والنصر من قرنائه والسيف من اسمائه
اين الثلاثة من ثلاث خلاله من حسنه وابائه ومضائه »

او كقوله :

« دواليك يا سيفها دولة وامرك يا خير من يأمر »

وهكذا كان المتنبي ملائماً لعصره ، فالعصر زاخر بالاضطرابات والحروب وصدر المتنبي جياش بالكبر والطموح فانفسح المجال للشخصية الفردية ووصل الشاعر ، الذي

اخفق في ادّعاه النبوة مرة والامامة اخرى وفي احراز الولاية ايضاً ، الى امارة الشعر في بلاط حوى صفوة من شعراء ذلك العهد كابي فراس ، والسري الوفاء ، والنامي ، والببغاء ، والسلامي وغيرهم من العلماء كالفارابي واللغويين كابن خالويه .

وكان اختصاص المتنبي ببلاط سيف الدولة ثابت الصلة مستنداً الى ركنين من السياسة والاقتصاد جمع بينهما الذوق الادبي والود الصادق ، الذي لم تغيره زعازع الحوادث الا في الظاهر ، وعزز تهماً التضحية المتبادلة ؛ فكما ان الامير ضحى بمكانة مربية ، ابن خالويه النحوي المشهور ، وقدر ابن عمه الشاعر ابي فراس ، واختص ابا الطيب به ؛ هكذا كان يفعل الشاعر فيغلف نزعاته الخاصة بما يرضي اميره كما فعل عائداً من قمع فتن القرامطة ، او كما ضبط نفسه لما جرح في مجلس الامير وهو ينشده قصيدته المشهورة « واحر قلباه! » فارتجل ابلغ ما يقال من الشعر في التعبير عن التضحية في سبيل المحبوب .!

« ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرحٍ اذا ارضاكم الم »

وما اجمل ما قال في شعره واميره وحساده بعد ذيوع قصيدته : « اجاب دمعي وما الداعي سوى طلل » اذ قال :

« ان هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيه بيننا فقضى باللفظ لي والحمد لك
فاذا مرّ باذني حاسد صار ممن كان حياً فهلك »

ولقد شاء الدكتور عبد الوهاب عزّام في كتابه « ذكرى ابي الطيب » ان يجعل المتنبي شاعراً قصصياً كشاعر « الالياذة » فانكر الدكتور طه حسين ان يكون للمتنبي شيء من ذلك فيقول في كتابه « مع المتنبي » :

« على ان ابا الطيب لم يتوفق الى قول الشعر القصصي من نحو ما جاء في الالياذة او تفضيله عليه كما شهد له بذلك ، وانما هو شعر متنوع كحياة الامير » ؛ ويشير الى ان الشاهد هو الدكتور عزام .

ولا اريد هنا ان احشر المامي بعلم الدكتورين ، ولكنني اريد ان اتوكأ عليه لارقى الى هذا الامير ، سيف الدولة ، فاتمثله على راي احد الدكتورين ، عزام ، بطلاً اسطورياً نظم فيه ابو الطيب نيفاً وثمانين قصيدة خالدة ؛ واراه على رأي الدكتور الآخر ، طه حسين ، اميراً متنوع الحياة تنوعاً يوحي الى شاعرة بالمعاني الشعرية الفخمة او على الاقل ، يعرضها على لباقته وعبقريته فتخرج نوعاً خاصاً من المدح التبس على الدكتورين امر الاتفاق على تصنيفه ؛ فتجاذبا الشاعر واميره بالرأي والدرس .

وما اراه « بالمامي » هو ان المتنبي خرج في شعره باميره من دائرة الشعر الغنائي الى دائرة الشعر القصصي ؛ ولكنه لم يتوفق اليه في مراسه المنبسط المدى وسياقه المتواصل في الوصف الخارق ؛ ولكنه توفق الى الوصف الخارق في سياق متقطع وفي مدى يتسع بقدر ما تتسع واقعة سيف الدولة . ومن تدبر قصيدتيه : « أراع كذا كل الانام همام » و « على قدر اهل العزم تأتي العزائم » مثلاً تبين له الوصف الخارق في خيال الملاحم ولكنه مقطع السياق فلم يرض الدكتور طه حسين ان يحسب في الشعر القصصي .

ولم نتعرض لبحث مدائح المتنبي في غير سيف الدولة لاننا اعتزمنا البحث في الاختصاص بالمدح ؛ وما ارى المتنبي غير مختص بمدح سيف الدولة وان مدح سواه فمدحه غير صادق العاطفة ، سهل الهدم غالباً ؛ ولا سيما في صاحب مصر ، كافور .

وخلاصة القول ان قصائد المتنبي في سيف الدولة صوت مبوّق متحمس يهز قلوب المسلمين قبل آذانهم بوصف جهاد امير يدفع الروم عن شواطىء سوريا الشمالية وبعض مدنها ويذود عن حياض الاسلام .

ونختم الكلام مرددين قوله معجباً باميره معرّضاً ببلاط بغداد :

« ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدارُ الشمول » ،

وبقول ابي القاسم الطبسي في رثاء المتنبي :

« كان من نفسه الكبيرة في جيش ومن كبرياه في سلطان
ما رأى الناسُ ثاني المتنبي اي ثانٍ يُرى لبكر الزمان
هو في شعره نبيّ ولكن ظهرت معجزاتـه في المعاني »

وهذا « السلطان وذاك « الجيش » ضمنا له المقام الاول في بلاط بني حمـدان و « معجزات معانيه » تضمن له مقام « نسر الشعر العربي » .

شوقي في بلاط مصر

شوقي الرجل :

هو احمد علي شوقي ولد بالقاهرة عام ١٨٦٨ م . في بيت كريم المنشأ وحيداً منعماً نشأ ربيباً لنعمة الخديوي اسماعيل وفي ذكرى هذا المنشأ قال في زمن جفوة كانت بينه وبين القصر في عهد خلف اسماعيل :

«أأخون اسماعيل في ابنائه ولقد ولدت بباب اسماعيلا !»

وقد جاء فيما قاله عن نسبه : انا عربيٌّ تركي يوناني جركسي بجدتي لابي اصولٌ اربعة مجتمعة في فرع، اما ولادتي فكانت في مصر بالقاهرة »

تدرّج في اتمام ثقافته منذ كان يافعاً ، في مدرسة تمهيدية الى المبتديان فالى التجهيز ونال من وزارة المعارف المصرية الشهادة العليا في الترجمة ، وارسله الخديوي توفيق باشا لدرس الآداب والحقوق في فرنسا فمكث فيها بأمر الخديوي نفسه ؛ اربع سنوات اكسبته علما واختباراً بالقدر الذي تناوله جهده طالباً لا عالماً .

انتدب وهو في الثامنة والعشرين ممثلاً للحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين في جنيف ، ورأى فيه الخديوي عباس باشا الكفاءة العالية فاحبه وولاه رئاسة القلم الفرنجي في الديوان الحكومي المصري .

واضطر شوقي لترك مصر في مهب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ فغادرها الى الاندلس حيث تحتشد ذكريات امجاد العرب وآثارهم في القارة الاوروبية واستقريندب « الزهراء » ويغذي خياله بجمال اسبانيا حتى انتهت الحرب فرجع الى مصر يبثها شوق الابن البر .

واستمر يتحف العربية بروائع الشعر وبعض النثر الى ان جاء حينه سنة ١٩٣٢ م وقد بلغ الرابعة والستين فمات شيخاً في الادب والسياسة .

شخصيته :

قلنا ان المزاج الارستقراطي هو شرط لازم في توثق علاقة رجل الحاشية بأميره وهكذا كان في شخصية احمد شوقي ، الواثق من شاعريته واللبق في انفته ، توثب الى المراتب وعشق لحياة القصور ومظاهر الجلال يتجلى لنا ذلك في مثل قوله :

« شاعر الامير وما بالقليل ذا اللقب »

اجل انها شخصية ضخمة « ملوكية » بلغت بصاحبها او بلغ هو بها اقصى غاية للعُجب بالذات والاعتداد بالشاعرية والنبوغ فهو يلوح للقراء عامة والشعراء خاصة بهذه الشخصية الضخمة حتى في مواقف الرثاء فاسمعه يقول في رثاء امه :

« نمتك مناجيب العلى ونميتها فلم تلحقي بنتاً ولم تسبقي اما
وكنت اذا هذي السماء تخايلت تواضعت لكن بعدما فتها نجما
اتيت به لم ينظم الشعر مثله وجئت لاخلاق الكرام به نظما
ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الارض كان المزن والتبر والكرما »

ولا اظنه الا تحدى بهذا زميله الشاعر « الاميري الحمداني » حيث قال :

« ولولم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الفخم كونك لي اما »

كما انه حاول ان يتحداه بقوله :

« رواة قصائدي فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلقُ » ،

والسابق المتنبي قال :

« وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

كما انه تحدّى مقلداً ، او عارض إتباعياً ، كثيراً من أعلام الشعر العربي في افضل مطولاتهم ؛ كالبوصيري في « بردتـه » والبحتري في « سينيته » والاندلسي في « رثاء الاندلس » وغير ذلك مما يعرض علينا مجلاً احمد شوقي معتدا بعبقريته مباهياً «بامارته» .

بيد ان « اصوله الاربعة المجتمعة في فرع واحد » ، على حـد قوله عن نسبه ، أفسدت علينا الكشف الكامل عن مبطنات تلك الشخصية المتوارية في خليط من المنازع الفرعونية والاسلامية والتركية والشرقية وجعلتنا لا نأمن اللبس في البحث عن عصبه الرئيسي . وان كان لا بدّ من الدخـول الى قرارة شخصيته على ضوء الدراسة نرجح انه كان فرعونياً قبل كل شيء آخر بحكم تأثير المنشأ والبيئة وفضل البلاط ، ثم تركياً ، ثم اسلامياً بحكم المتجدر والدين ، ثم شرقياً بضرورة الجامعة العربيـة المنشودة .

فهو اذن اكثر وفاء لنعمته واميره منه لاسلامه ودينه على الرغم مما يبدو لنـا ، خلال كثير من شعره ، من الايمان الصادق والشعور الديني الفياض الذي لا يبخل على المسيحية ببعض التدليل بعجائب « عيسى » وفضائله . وربما كان هذا الوفاء الجم لبلاط مصر درساً لقنته اياه تجارب الايام وخلاصات العلم وبلاء الاسفار على رأي بعض الادباء ؛ ولكننا نرى أن المصانعة في حب المراتب العالية وبلوغ نعمة الثروة هي التي جمعت له ذلك البرّ ببلاط أولياء نعمته فوشّت شعره بوشي الحكمة البراق ؛ ولذا نرى الحكمة تطغى على سائر شعره في شتى المواضيع ، ولكنها حكمة مألوفة قل ان تنزل الى غور ، او حكمة مبتذلة « ملوكة » كتسائله في اكثر مراثيه عما وراء القبر ، او حكمـة مكررة ؛ منقادة طوعاً مرة وكرها اخرى ، كعرضه بنيان الامم والممالك قائماً على اخلاقها ؛ وقد أسرف في التوكؤ على البنيان الاخلاقي فرآه ملاكـاً لممالك الحيوان والحشرات كالنحل مثلاً .

شاعريته :

وسواء أوافقنا الجاثرين على شوقي « الامير » ام ناقضناهم ، جزئياً ام كلياً ، فلا بد لنا من الاعتراف بشاعريته فذة جليدة الى حد بعيد ؛ وتلك الفذاذة وهذا الجلد باديان في كل ما خلّف من منظوم كله فخم الديباجة ملوكي الرواء يلوّح بالنفس الطويل والصبر العنيد . واشهر ما يفيد هذه الشاعرية لتظهر اكثر تماسكاً وعمقاً هو ان شوقي اقل علماً بالنسبة الى معارف عصره من فحول الشعر فيما سلف بالنسبة الى عصورهم ؛ وهذه قصيدته في تقريظ احمد لطفي السيد مترجم «اخلاق ارسطو» تشهد عليه ببعض ذلك ؛ ولئن شد عليه الدكتور طه حسين في هذا الصدد فقال : « قال شوقي شعراً في افلاطون وهو يقصد ارسطو » فالشد في محله اذ ان ظروف الاقتباس والتوليد التي سنحت لشوقي ندر ان سنحت لغيره من السابقين والمعاصرين .

ومن رأى ان يعذر شوقي في اهماله الاطلاع على ما يقوم من فوارق فلسفية بين مذهبي ارسطو وافلاطون وجب عليه الا يقيم له عذراً اما رأى تلك الشاعرية الجليدة ، كما قدمنا ، لا يرافقها غير جلد عادي في ابداع الجديد من الشعر مهابة منه للقديم وتخاذلا في مجابهته الخروج عليه وهو المطوف في قواعد الابداع الشعري الجديد من مُدن اوروبة وغيرها . ولا ارى اختصاصه بالمدح واكثاره منه إبان نضجه الفكري ، وهو الذي كان يكرهه فتياً بشهادة احمد الفتى على نفسه بذلك في مقدمة ديوانه القديم الا صريح اعتراف بتراجعه ووهنه في « معركة الفتح الشعري الحديث »

الا توشك ان تلمس هذه الشاعرية الجبارة كالنسر تحول حسوناً ناعماً مغرداً يطرب مولاه بمثل قوله :

« اليس من العز المسنع ان ترى امير القوافي في ركابك جاثياً ؟»

أو قوله :

« أأخون اسماعيل في ابنائه ولقد ولدت بباب اسماعيلا ؟ »

فهذا الجائي في « ركاب الامير » و « المولود بباب اسماعيل » لم يصلح كثيراً لان يتحدى شكسبير بدلا من ان يقرظه وهو الموهوب فناً وله من امكانيات العصر ما يعنيه على عرض قافلة من قوافل الدهور كما فعل شكسبير ؛ ولكن قاتل الله مظاهر العظمة البراقة كم وقفت حاجزاً منيعاً في وجوه الكثيرين من اصحاب المواهب فغمرتهم بزائف مظاهرها وغلفتهم بوهوم خلودها .

وقد جعلت شاعرية شوقي مثلها الاعلى سابقاً لعصرها فخسرت كثيراً من قيمتها الكبيرة وغناهـا الطائل وكل ذلك ناتج عن عوامل التوكؤ على القديم والتوكل على الموهبة ، فجاءت قصائده بالحكم الشائعة البديهية ولم تنزل الى غور من اغوار الحياة كما سلف الكلام ، وان نزلت فنادرٌ نزولها وليس الى بعد .

ويا ليته عمل للادب بالرأي الذي رآه للسياسة في مثل قوله مخاطباً شباب مصر :

« فابنوا على اسس الزمان وروحه ركن الحضارة باذخاً وجديدا »
« الهدم اجمل من بناية مصلح يبني على الاسس العتاق جديدا »

او في مثل قصيدته « الرحالة » .

« وكل بنيان قوم لا يقوم على دعائم العصر من ركنيه ينصدع
شريف مكة حر في ممالكه فهل ترى القوم بالحرية انتفعوا ؟ »

فهو كان يشعر كل الشعور بالجدة الدولية وفقاً لحياة العصر القومية ؛ ولكنه رأى مثل هذه الجدة ضرورة للادب وهو شاب ثم تحول عنها كهلاً وشيخـاً مشدوداً الى روابط من عصور خلت قلماً اتفقت وهذا « الزمان وروحه » .

اختصاص شوقي بالبلاط الخديوي :

لا حاجة بنا الى درس الاسباب والظروف التي أخصت شوقي بالبلاط الخديوي وهو نفسه يعلن لنا انه : « ولد بباب اسماعيل » وغمر بالعناية الملوكية فكأن غريد البيت المالك ولسان حال سياستهم شعراً . وليس من صعوبة تعتور الباحث عن صلات شعر شوقي ببلاط عابدين فهو مقلد رب البـلاط المصري في المحافظة على مـا

تحافظ عليه حكومته وهي اهداف ثلاثة :

١ — سلامة مصر والاشادة بذكريات الفراعنة .

٢ — مجاملة الباب العالي والتدين بالاسلام والدفاع عن حياضه واحترام كل ما يستند اليه ديناً ودنيا .

٣ — حسن العلاقات بالحكومة والبيئات العربية الدم واللسان والبلاد وبالاوساط الشرقية جغرافياً

ومن انعم النظر في قصائد شوقي السياسية التاريخية الكثيرة ادرك بمقياس المادة ان شاعريته ، في مواقف السياسة والتاريخ ، تحدث في شعره تمدداً يدور حول نقطة وسط كالانفساح الذي يحدثه حجر تلقيه في الماء ؛ وفي دائرة هذا الانفساح نلمس اهداف الشاعر الثلاثة التي سبقت الاشارة اليها محلاةً بذكريات ومآثر لامراء البيت المالك لا يستطيع المؤرخ اثباتها او هي تغرب عن باله ؛ وان عرض لها علم التاريخ فهي طبعاً ، ادنى منها قيمة في معرض قصيد شوقي . فكأنه كان داعية شعر الى وفاق في مصر وبوق تناد في البلاد العربية والتركية في عهد السلطنة العثمانية .

وكأن سياسة خاصة حرص عليها حمته بنعمة القصر لرب السرير ودفعت عنه اذى الناس فاصبح مؤتلفاً بهذه الحياة موقوفاً شعره عليها .

عصب فرعونه :

ان البلاط المصري ، الذي كثيراً ما كان يُعرض عن حافظ ابراهيم وامثاله من كبار الشعراء المصريين ليخص بنعمته احمد شوقي ، كان يلمس في شاعره المفضل الذود الحق والاخلاص العظيم ؛ فلم توقظ الآثار المصرية الناطقة بجلال تاريخ مصر من عوامل الفخر في نفوس سائر شعراء مصر الحديثة ما ايقظته في نفس شوقي ؛ وفي المقاطع التالية مصداق لما نرى :

من مناجاة ابي الهول :

ابا الهول انت نديم الزمان نجي الاوان سمير العُصُر

تطل على عالم يستهل وتوفي على عالم يحتضر

. . . .

الم تبل فرعون في عزه الى الشمس معتزياً والقمر
يؤسس في الارض للغابرين ويغرس للاخرين الشمر

. . . .

فهل من يبلغ عنا الاصول بان الفروع اقتدت بالسير
وانا خطبنا حسان العلى وسقنا لها الغالي المدخر

ومن وطنية له نظمها في بلاد الاندلس :

وطني ان شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي

ومن اخت « يوشع » :

أمّ المالكين بني امونٍ ليهنك انهم نزعوا امونا
فكانوا الشمس حين الارض ليلٌ وحين الناس جدٌ مضلينا
مشت بمنارهم في الارض روما ومن انوارهم قبست أثينا

ومن « انس الوجود » :

وانا المحتفي بتاريخ مصر من يصن مجد قومه صان عرضا

ومن قصيدته في وليمة اعدها للكاتب الانكليزي المستر « هول كين »

ان مصراً رواية الدهر فاقرأ عبرة الدهر في الكتاب العتيق

ومن يلوم ؟ انه شاعر بلاط موهوب استظل عرشاً ترف على جوانبه ذكريات مجد عظيم قديم تأرجح بين (ممفيس وتيبس) قاعدتي مصر الفرعونية ، واغمض الموت عينيه وهو يشهد معول العلم الاثري الحديث ينشر ، بين آونة واخرى ، من مومياء تلك العظمة ما استدعى اعجاب السلطان والفن والعلم في القرن العشرين .

ولمَ لا يسمي « ابا الهول » ، المنحوت الجبار القائم عند قاعدة الهرمين العظيمين « نديم الزمان يطل على عالم « يستهل ويوفي على عالم يحتضر ؟ » ولم لا يراه بعين المصري

والشاعر والمؤرخ ينتسب الى الشمس والقمر في سنائه وخلوده ؟ ومثل هـذه الآثار حوافز الاصول في نفوس الفروع .

وكيف نلومه ان هو قدم فخره بمصر واعتداده بغابر سلطانها على كل مقدم آخر وهو لا يريد « ان يشتغل بالخلود عن حبه مصر » وهو « المحتفى بتاريخ مصر يصون عرضاً ان هو صان هذا المجد الفرعوني»، وهو المستقرى. ضيفه، الكاتب الانكليزي، عبدة الدهر في كتابه العتيق ، مصر »؟

هذه اشارات جلية الى فرعونية المتأصلة في ذاته ؛ ولكن شوقي لم يشأ ، او لم يستطع ، ان يبقى محلياً ضيقاً لا يتعدى جو مصر ، فتعداه ، ولكن فيما يتفق ومصلحة البلاط الواقف شاعريته على خدمته.

عصب الترك والاسلام :

لو لم يكن شوقي مصري المولد والمنشأ وربيب نعمة الخديوي اسماعيل يربطه الوفاء ببلاط مصر ويغريه بالتغني بامجاد الفراعنة لكان شاعر الترك والاسلام بحكم العصبيتين المحتدية والاسلامية .

ولئن يكن عصب فرعون باديـاً . اصدق واعمق لعين الدارس فعصب الترك والاسلام اعم واوسع .

وفي قوله في مدح السلطان عبد الحميد :

أناول من شعر الخلافـة ربهـا ... واكسو القوافي ما يدوم فيقشب
وهل انت الا الشمس في كل أمة ... فكل لسان في مديحك طيب
واني لطير النيل لا طير غيره ... وما النيل الا من رياضك يحسب

ما يوشك ان يحملنا على الاعتقاد بان تركيته طاغية على غيرها من النزعات لولا استدراكنا الحكم بطغيان المجاملة لصاحب الاستانة ، فالشاعر « طير النيل لا طير غيره » ولكنه « هو والنيل الذي يحبه في كنف الباب العالي » ، او بالاحرى « صاحب بلدز ».

وفي قصيدتيه ؛ « صدى الحرب » و « سل يلدزاً » ما يذر الرماد عن تركية تجيش في شاعريته متفجرة بفيض من العواطف النازية حساسة مع صاحب التاج العثماني.

وما ان تصل الى قوله :

« لك الربوع التي ربع الحجيج بها ألللشريف عليها أم لك العلم ؟»

حتى تراه رجح ، ولو في غفلة من غفلات اسلاميته العربية ، تركيته ؛ فيهيب بصاحب يلدز ان يضرب على ايدي الشريف واعوانه ويظلل الحجيج بالسيادة التركية عملياً في قلب الجزيرة وبيتها الحرام .

وعلام لا يصح اتهامه برجحان النزعة التركية على العربية وهو العاشق لمقر السلطنة « الاستانة » ، فيخاطبها متغزلا بها قائلا :

« في كل عام انت نزهة روحه ونعيم مهجته وراحة باله
يغشاك قد حنت اليك مطيه ويؤوب والاشواق ملء رحاله »

والهاء راجعة طبعاً الى الشاعر شوقي .

ولولا ظهور المجاملة لصاحب التاج العثماني منبثة هنا وهناك في « تركيات » شوقي الكثيرات مجاملة جوفاء ، اعني لا تقوم على حقيقة مدح ، لقلنا ؛ انه تركي قبل كل شيء . فاسمعه يقول لمحمد رشاد ، اضعف من عز الاسلام بظله » :

هز اللواء بعزك الاسلام وعنت لقائم سيفك الايام
وانقادت الدنيا اليك فحسبها عذراً قياد اسلست وزمام
ومشى الزمان الى سريرك تائباً خجلا عليه الذل والارغام

ومحمد رشاد يشتري من المانيا بارجتين والشاعر يستفز الاسلام لاعانة الاسطول التركي الضعيف .

وقد ازلقت بيانه ايضاً مجاملة الخليفة العثماني غواً من مسالك البقرية التي يرتادها اديباً تركياً اسلامياً حين قال :

« وكانما « البوسفور » حوض محمد وسط الجنان وهن في اجلاله

وكأن « شاهقة القصور » حياله حجرات « طه » في الجنان وآله » ؛

وكانت جماجم ضحايا عبد الحميد الطاغية ما تزال تلتطم بالشاطىء مع امواج البوسفور وجوانب « شاهقة القصور » ترجع انات المظلومين وتزخر بذكريات الاحرار الشهداء بشهادة اديب الاحرار ، ولي الدين يكن ، في « الصحائف السود » و « التجاريب » .

ولست ادري كيف رأى السلطان ، محمد رشاد ، عديلاً لعمر بن الخطاب رأياً لا تحفظ فيه فقال :

« فكأنك الفاروق في كرسيه نعمت شعوب الارض تحت ظلاله »

والفاروق من المثل العليا في الملوك والحكام قديماً وحديثاً .

ولم يترك سائحة التاريخ التركي تفوته دون ان يمدح « اتاتورك » مصطفى كمال ، بمثل قوله :

من فل جيش ومن انقاض مملكة ومن بقية قوم جئت بالعجب
أخرجت للناس منّ ذل ومن فشل شعباً وراء العوالي غير منشعب .

وما كان اكثر لباقته ومرونته حين انكر على « اتاتورك » ممدوحه بالامس ، ان يلغي الخلافة ، ان صح التعبير تاريخاً اسلامياً [1] ، ويجعل من تركيا ، مملكة السلطان المخلوع ومَن « مشى الزمان الى سريره ذليلاً مرغماً تائباً » بلاداً اوروبية الشكل ؛ فخاطبه لائماً معاتباً :

استغفر الاخلاق لست بجاحد من كنت ادفع دونه وألاحي
مالي اطوقه الملام وطالما قلّدته المأثور من امداحي
أأقول من احيا الجماعة ملحد واقول من ردّ الحقوق إباحي ؟ »

---

(١) اشارة الى ان بعض المؤرخين ، وبينهم الاتراك كمدحت باشا ، لا يسمون سلاطين آل عثمان خلفاء بل يلقبونهم « بحماة الحرمين » او بلقب « امير المؤمنين »

ان ما نعنيه هنا بالعصب الاسلامي الادبي هو حسب الاشادة بامجاد ابناء العربية في ظل الحكومة المسلمة ؛ تلك الحكومة التي طلعت شريعتها الرشيدة من صحراء « الجزيرة » وجمعت تحت اكنافها مملكة لا تحسد ، ابان بلوغها الذروة ، مملكة اخرى في العالم ان عدلا وان سلطاناً ، ان علماً وان سياسة ، وفي ملوكها أمثال عمر بن الخطاب ومعاوية الاول وهارون الرشيد والمأمون ؛ ولا نرى فرداً سياسياً يلفت نظر العالم اجمع اذ يؤسس دولة او يرمم ما تصدع من بناء امة بعد ان عرف تاريخ الاسلام صقر قريش يحمل في صدره كيان دولة وينقل بيديه نواة امة ؛ فينزل بلاداً غير بلاده ويجمع قوماً غير قومه وينشىء في القارة الاوروبية مفخرة عربيةدولية باسم الحكم الاسلامي وفي ذكرى العظمة الاموية يقول شوقي في « تحية دمشق » :

بنو امية للأنباء ما فتحوا ... وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا؟
عالين كالشمس في اطراف دولتهم ... في كل ناحية ملك وسلطان
بالامس قمت على «الزهراء» اندبهم ... واليوم دمعي على « الفيحاء » هتان

وفي قصيدتيه ،« الاندلس الجديدة » و « قم ناد انقرة » وضوح نطمئن على نوره على صحة وجود عصب الاسلام متنفشياً في نفس الشاعر ، فاسمعه يقول في رثاء صدع الحكومة المسلمة التركية الجنس يوم سقوط ادرنة وسلونيك في ايدي اليونان :

« يا أخت اندلس عليك سلام ... هوت الخلافة عنك والاسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها ... طويت وعم العالمين ظلام
مقدونيا والمسلمون عشيرة ... كيف الخؤولة فيك والاعمام

---

(١) اشارة الى قول شوقي لمحمد رشاد :
« ومشى امير المؤمنين الى سريرك نائباً ... خجلا عليه الذل والارغام »

أتراهم هانوا وكان بعزهم وعلوهم يتخايل الاسلام[1]

وغير هذا كثير فما يدل ، في مختلف شعره ، على حسن دينه بالاسلام واحترامه اياه الى درجة بعيدة، ولكن بلاط مصر كان راضياً عن تدليله بفضل الاسلام وعظمة تاريخ ممالكه فهو في هذه شاعر البلاط الخديوي بصورة غير مباشرة .

عصب العرب والشرق :

هذا هو العصب الثالث في شعر شوقي السياسي ، المحوم في جو السياسة المصرية ، ويجب ان نكشف عنه لنتمكن من ان نسلم ، جزئياً ان لم يكن كلياً ، بصحة قول الشاعر العالم ، مطران ، في مهرجان شوقي :

« أعظم بشوقي ذائداً عن قومه وبلاده في الازمة النكراء »

او نستطيع ان نؤمن بعض الايمان بقول شوقي في المهرجان نفسه :

« كان شعري الغناء في فرح الشر ق وكان البكاء في احزانه »

او نرتاح الى مبايعة حافظ شاعر النيل ، شوقي اذ قال في المقام ذاته :

« امير القوافي قد اتيت مبايعاً وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

شوقي وحافظ ومطران ثلاثة من اركان الفصحى جمعتهم مصر حقبة من الزمن فتعارفوا عن كثب وساروا في طليعة الشعراء الذين ادركوا ضرورة التحول بالشعر العربي عن الموضوعات المبتذلة والبيان الجاف والعصبيات السامة ؛ وكانوا ، وهم جيران في السن ايضاً ، يخلعون على مشيبهم ثياب النشاط والفتوة . وانهم وان لاح لنا في شعرهم تنوع الاغراض واختلاف النزعات وتباين الاجواء الشعرية والتنافس احياناً ، لم يبخس احد منهم حق اخويه في اعلان حقيقة شعرهما ، ومن الابيات الثلاثة المتقدمة الذكر نتبين ان شوقي لم يرفع نفسه الى اسمى من المنزلة التي رآها له اخواه .

---

(١) كان من العدل ان ننسب اليه بعض التعصب الديني لولا ما شاع عنه من حسن تدينه وما ثبت عند الدراس من صادق احترامه « عيسى »

ولنعمد الآن الى تلمس هذه المنزلة الشعرية التي عرفت لشوقي غير مبالغ فيها .

لم يكن شوقي ليرضى عن شاعريته ذاهبة في المباهاة بامجاد مصر وعزة السلطنة العثمانية والاسلام كل مذهب ، بل كان يجتهد في ان يجمع الى تلك المباهاة الدعوة الى تفاهم البلاد العربية وترابط الاقطار الشرقية مستنداً الى الحكمة القريبة المتناول متوكئاً على الاخلاق الاجتماعية والآداب القومية ؛ فانظر اليه يغلف الجفوة التركية البارزة في صدر « اخت اندلس » بغلاف لبق من التسامح الانساني والاخاء المذهبي في مجرى القصيدة اذ يقول مشذباً خروج اليونان على تعاليم عيسى كما تراءى له :

« عيسى سبيك رحمة ومحبة في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرءاً هان الضعاف عليه والايتام
ياحامل الآلام عن هذا الورى كثرت عليه باسمك الآلام
انت الذي جعل العباد جميعهم رحماً وباسمك تقطع الارحام

ويستوحي ، من عل ، الرفق الاسمى لشعره في بأساء الحياة وسرائها لا يستطيع استيحاءه الا الالى تفتقت في نفوسهم اجواء من النبوغ المرمم ، نبوغ السلام والتفاهم فيقول :

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والندى والحياء

ولكن الفتح مجتاح والحرب غاشمة نكراء وشوقي شاعر رفيق يجتهد في ان يضمد من جراح العرب وفي ان يلاشي ما اندس في بعض النفوس من الشحناء الاهلية وما قام بينهم من حواجز دينية ، في مختلف العصور ، فيسمعهم رأيه ، في الكنيسة تحول مسجداً ، متجمعاً في البيت التالي :

« كنيسة صارت الى مسجد هدية السيد للسيد »

ورأيه في بناء الدولة العربية على قواعد يجمعها في بيتين وهما :

« الملك تحت لسان حوله ادب ، وتحت عقل على جنبيه عرفان
الملك ان تتلاقوا في هوى وطن تفرقت فيه اجناس واديان »

ويخاطب « الصليب الاحمر » شعار المؤاساة في زعازع الحروب بقوله :

« والمس جراحات البرية شافياً ما كنت الا للمسيح بنانا »

بمثل هـذا الشعر المسلم المسيحي يجب ان نلقح ادبنا واجتماعنا لنحيي. وطناً يقول شاعره لسائسه في المستقبل قول شوقي ، في سابق الاوان ، للسلطان التركي الذي خلعت حكومته على دولته لقب « الرجل المريض » [1]

« يفديك نصرانيه بصليبه والمنتمي لمحمد بهـلاله
وفتى الدروز على الحزون بشيخه والموسوي على السهول بتاله
صدقوا الخليفة طاعـة ومحبة وتمسكوا بالطهر من اذياله »

نقف عند هـذ الحد من درس اعصاب شوقي الشعرية لنعود الى الكلام عن بروز الاختصاص ببلاط مصر مقيداً شاعرية حسون قصر « عابدين » وان شئت فقل ؛ « بازيه »

بروز الاختصاص ببلاط مصر على الرغم من نفرع الاعصاب :

قلنا ان عصب فرعون اعمق من سواه في شعر شوقي السياسي او المدحي ، على الاقل ، وهذه الفرعونية المتأصلة في شعره والنامية معه هي اساس العظمة التي يسند اليها عزة صاحب التاج المفي. عليه ، من اسرة محمد علي باشا الكبير ، ففي قوله في ابي الهول :

فهل من يبلغ عنا الاصول بان الفروع اقتدت بالسير
وانا خطبنا حسان العلى وسقنا لها الغالي المدخر ، »

ربط تاريخي واضح لجلالة العزة الخديوية بعظمة تاريخ الفراعنة .

ومن قوله في تهنئة الخديوي اسماعيل :

« يا اجل الكرام وجهاً وجاهاً وابرّ الورى حفيداً وجـدا

---

(١) اشارة الى اللقب الذى الصقه بعض الساسة الاوروبيين بالدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد .

وكبير الحياة في العصر والعالي[1] فما اري لك نـدا
اين كسرى واين قيصر مما نلت بالمجد بلغت او مجدا
لبس الشرق من لقائك تاجاً وتلقى اعوام رشدك عقدا

ندرك ان الشاعر يحاول ان يرتفع بممدوحه الى درجة الاكاسرة والقياصرة ؛ انلم يكن بسعة الملك فبمدى ما « بلغه الخديوي مجدا » ويرى في ذلك ما يلبس الشرق تاجاً » وفي هذا الشعر لباقة المبالغة التي تشعر دارس هذا المدح ان شوقي ضنين بممدوحه المصري أن يلبس غلواً مردوداً « مفضوحاً » ، شأن « امير الشعراء » في صاحب الاستانة ، كما ضن قبله المتنبي بالباس سيف الدولة شيئاً من ذلك ؛ وان حدث ان تجاوز شوقي الغلو المقبول ، في مدحه بلاطه واميره ، كحلّه بالفن الرائع والعاطفة الصادقة والعقل المتدبر حتى ينزل من الذوق منزلة لا يتأباه معها كقوله في « اخت يوشع » وقـد رفع مليكه فوق فرعون ؛

« زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا
فؤاد اجل بالدستور مُلكاً واشرف منك بالاسلام دينا

وكقوله في حب مصر مربع نعمته ، وبلاد مولاه :

وطني ان شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي »

وانظر اليه كيف يتدبرا امره فناناً يضع نفسه فوق المتنبي ويستعلي على التكسب بمدحه ولو من صاحب التاج العثماني ، أمير امير الشاعر ، ان صح التعبير ، اذ يقول في تهنئة السلطان العثماني وقد نجا من محاولة اغتيال :

« ومن كان مثلي احمد الوقت لم تجز عليـه ولو مـن مثلك الصدقات
ولي دُررُ الاخلاق في المدح والهوى وللمتنـبي درة وحصـاة

---

(١) العالي معطوف على « اجل الكرام » وهذا منادى ، ولا ادري كيف اجاز لنفسه الشاعر ان يعطف المقترن بال على المنادى « يا » في حين اجتماع حرف النداء بال التعريف لا يجوز الا في اسم الجلالة فنقول : « يا الله » .

نجت أمة لما نجوت ودوركت بلاد وطالت للسرير حياة ».

ولا اعتقد هذا الاستعلاء غير شهادة ، يريدها الشاعر المترف المتخم بنعم قصر عابدين ، ناطقة صريحة بانه حجز رزقه ومبلغ نعمته فيما كان البلاط المصري يغمره به من عطايا ويجريه عليه من مخصصات ويمنحه من جوائز واوسمة وألقاب ؛ ولا غرابة « فكرمة ابن هاني » ناطقة بسخاء البلاط الخديوي على بانيها .

ولم نشأ ان نعرض عن الالمامة بشوقي مادحاً اسلامياً تركياً مشرقياً اعراضنا عن الالمامة بابي الطيب مادحاً لكافور وفاتك وغيرهما ، لان الصلات الموجودة بين بلاط مصر والاسلام والترك والشرق مفقودة بين بلاط حلب وبلاد ممدوحي المتنبي الأخرين ، فصاحب عابدين كان لا يؤذيه ، بل كان يرضيه ، ان يشترك شاعره ، باسم مصر ، في افراح الشرق واحزانه ، وهذا ما اشار اليه شوقي اذ قال :

« كان شعري الغناء في فرح الشر ق وكان البكاء في احزانه »

بينا لم يكن يرضى سيد بني حمدان ان يشرك شاعره معه ممدوحاً آخر ، والى هذا أشار المتنبي اذ قال :

« لئن تركن ضميراً عن ميامننا ليحدثنّ لمن ودعتهم نـدم[1] »

وصفوة القول ان شوقي تناول من موائد البلاط المصري حتى التخمة ، فاسمعه يطلب السعادة في غير نعماء القصور اذ يقول :

« فان السعادة غير الظهور وغير الثراء وغير الترف »

ولكنها في نواحي الضمير اذا هو باللؤم لم يكتنف

وما اخال شوقي الا واحداً من الذين لم يحملوا ضميرهم ما يثقل .

---

(١) نون الاناث راجعة الى الركائب . وضمير جبل في بلاد الشام يقوم عن يمين المسافر الى مصر .

جادة المديح الصادق واحدة

واله تعددت الطرق

لقد اثبتت الدراسة الادبية الصحيحة ان الشعر والشاعر والشاعرية اقانيم ثلاثة منفصلة متصلة في آن واحد ؛ وربما جاز لنا ، عن طريق المثل الحسي ان نشبهها بالثوب والخياط ومقدرة الخياط الموهوبة طبيعياً .

والادب المدروس ، بشعره ونثره ، كالمرايا المصقولة على انواعها ؛ منها ما يريك وجهك بشكله الطبيعي وقياسه الحقيقي ، ومنها ما يريكه مزيفاً بعض الزيف ، اما في انحراف الى جهة التصغير واما الى جهة التكبير . ومن الادباء من يعرض ، نفسه او ما يتناوله في النظم عادياً في مرآته الادبية ؛ ومنهم من يقوي ماضعف ويستر ما شاء ويجسم ما حسن ومنهم ما يترجح بين هذا وذاك ؛ وقد يصح لنا ان نجمع الادباء في فئات كبيرة ثلاث وهي :

١ – ادباء السليقة المرسلة كطرفة بن العبد

٢ – ادباء العقل والاجتهاد كالحرث بن حازة اليشكري

٣ – ادباء الموهبة والاحتراف [1] كابي تمام

ولم نعن بتقديم ادباء نماذج في النثر لانحصار بحثنا في الكلام على جادة من جوادِّ الشعر وهي شعر المديح .

---

(١) الاحتراف نعني به النهج الابداعي الجامع بين صحة البيان والمثل الاعلى المنبثق من روح العصر .

وربما لاحت لنا في بعض مقاطع الادباء ، ولا سيما الشعراء منهم ، هذه الفئات الثلاث مجتمعة في واحد كما يبدو لنا في بعض شعر بشار بن برد واليك الابيات الثلاثة نموذجاً من هذا الخليط :

« اذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعش واحداً اوصل اخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت واي الناس تصفو مشاربه

ففي البيت الاول يجتهد بشار في ان يعقل ، فيقفز طبعه من نطاق العقل في صدر البيت الثاني ويسمعك قوله : « فعش واحداً . . » وهذه حاله في معيشته ، ويقف الاجتهاد بين طبعه وعقله فيتم البيت بقوله : « اوصل اخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه (اخرى) » ؛ حتى اذا ما بلغ البيت الثالث طلع علينا شاعر الموهبة والاحتراف بقوله :

«اذا انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت واي الناس تصفو مشاربه»

وتجنبا للتطويل نعتمد على التقسيم فنضع شعراء المدح الصادق عامة ، وشعراء البلاطات خاصة ، في جادة فئة الموهبة والاحتراف ، رغم تعدد شعابهم احياناً مقتنعين بان الموهبة العالية شرط مقرر الوجود لتستند اليه شخصية الشاعر فيقع عليه انتخاب العظماء ؛ والاحتراف ضرورة ثانية مفروضة الحذق تنسج على نول فنها المدائح المرصعة بدر البيان .

وان نحن امعنا الفكر في نتاج شعراء هذه الفئة رأينا ان اثبته عند الدراسة وافضله وقعا في نفس الممدوح الكبير الخبير ما توازنت فيه ، بعد صدق الاختصاص ، الموهبة مع الاحتراف بقدر ما ؛ وان بدا الرجحان ، فليكن للفن على الموهبة تجانساً والمظاهر الملوكية ومجالي العصر ؛ وعملا بهذه الدراسة التصنيفية ننظر الى اصحابنا المتنبي وشوقي والنابغة والاخطل فنقول :

طغت الموهبة في شعر شوقي على الفن فاستعاض عنه بفخامة البيت وشرود القافية

دائماً واطلاق النفس الطويل احياناً ، بينا الموهبة والفن عند الاخطل والمتنبي جناحا طائر متوازنا القدرة على التحليق في سماء الشعر الملوكي الممثل بعضاً من وجوه دولة الممدوح . اما النابغة فموهبته تميل الى الرجاحة على فنه لا سيما ان صحت رواية وصفه من « المتجردة » ما لا يؤتى على وصفه ، ولكن مكانة حكومته الشعرية وجزالة الفاظه وسهولة بيته،[1] نسبة الى زمانه ، تدفعنا كلها الى التحفظ بالجزم في ترجيح الموهبة .

وان النابغة والاخطل لم يفسح لهما القصر في مداهما الشعري بل ضيق عليهما بعض التضييق بينا خلق للمتنبي القصر آفاقاً شعرية جديدة[2] ، ولكن الثلاثة احسنوا تمثيل عصورهم ، بالقدر الممكن مع مراعاة الزلفى ، وخلق الاولان مثلهما العليا بنات لزمانهما في حين قصّر شوقي بعض التقصير ، في هذا الطريق ، لتقيده بنماذج ادب سابق وجعله مثله الاعلى سابقاً لعصره .

وقال هؤلاء الاربعة شعراً في غير اختصاصهم بممدوحيهم فكانوا ، لادمانهم حياة القصور ، لا يحسنون التفلت منها فتستمر غالبة على شعرهم ، فاشهر ما للنابغة اعتذارياته ، وأعلى ما للاخطل الرائية التي سمي بها « شاعر بني امية » واوسع ما للمتنبي من الروائع الشعرية فضليات مدائحه في سيف الدولة ، وابقى ما ثقف شوقي من الشعر « بكاؤه » في مصائب « الشرق » على حد اعترافه اذ قال :

« كان شعري الغناء في فرح الشر ق وكان البكاء في احزانه » .

اما الذين لم يختصوا بممدوحين ، من سائر شعراء العرب ، ففرائدهم في غير المدح ، كانت غالباً ، اوثق اتصالا بحياة الشعر من باقي قصيدهم .

---

(١) ربما كانت سهولة البيت في شعر النابغة ، وهو مضري المتحدر والمضريون موصوفون بشدة الاسر ، ضرباً من الفن لذيوع شعره في العرب .

(٢) وفي هذه الافاق يقول الدكتور طه : « ما نفقده من حرية المتنبي في فنه تعوضه علينا عبودية المتنبي لسيف الدولة ان صح التعبير »

واتفق الاربعة في ان كانوا المجلين في عصورهم ، ان لم يكن في سائر الشعر ففي المدح ،لانه شغلهم عن العناية بغيره ، وان لم يتفقوا في كل مظاهر الشخصية فقداتفقوا في واحد منها وهو المزاج المستعلي الطموح ، وكانوا جميعاً ضخام المعاني غزيريها ، انيقي الرواء ، رائعي البيت ، شرودي القافية ، تعوزهم حرية الموضوع وجراءة الاستقلال الشخصي في المدى الشعري الخالص .

وتنطح الثلاثة ، النابغة والاخطل والمتنبي لخصومهم وحسادهم مستجرئين بشخصياتهم وامرائهم كل الجراءة على الكائدين والواشين ، بينما جبن شوقي بعض الجبن ، ان لم نقل مع بعض النقدة ، راغلهم ، ومع البعض الآخر ، ترفع عليهم او صفح لهم ، ولعل اصحاب هذا القول الاخير استندوا الى قول شوقي في هذا الصدد :

« واغفر لحاسد نعمة بالامس نالك او وقع
ما في الحياة لان تعاتب او تحاسب متسع »

وكانوا جميعاً كالطائر الغريد الداجن الذي تفتح له باب القفص فيخرج منه ثم يعود اليه مختاراً منجذباً الى ما فيه من خادع المنزلة ونعمة العيش . وكان قفص كل منهم ينفسح بمقياس شخصية الممدوح ادباً وسلطاناً ويرتفع الى مستوى فن الشاعر في اعتماده على :

العقل والخيال والابداع

وهذه صفحات يسيرة من سلسلة أبحاث مقتضبة أسميناها :

الأمالي الادبية

عنينا بكتابتها توفيراً لاوقات مريدي الادب العربي من أقرب مناهله وأوجز خلاصاته ؛ وقد بدأنا ، منذ حين نوالي نشر بعضها في مجلة الاديب .

وما نثبته منها في هذا الكتاب لا يخلو من بعض الصلة بادتـه ، في بعض وجوه التفاعل بين الادب والقوى المتحكمة في مصائر الامم .

اما املياتنا عن احمد فارس الشدياق وابن الرومي والشيخ ابراهيم اليازجي فهي نموذج لتعريفنـا بعض اركان الادب العربي في ابرز وأيسر ما يستطاع.

الحيرة اقدم بيئة

تماس بين الثقافتين العربية والفارسية

لا بد للمتوغل في استقراء المروي عن العرب والفرس من ان يقع لهم على اخبار وصلات كثيرة بين تاريخ واساطير . وإما نحن اهملنا الاسطوري منها كاسطورتي منها الضحاك[1] وافريدون[2] ، واسطورة زال بن سام الذي تزوج بنت مهراب والدة

(١) الضحاك هو مرداس احد امراء اليمن استغواه الشيطان على قتل ابيه ففعل ، وظهر له في شكل طاه خبير دخل في خدمته فاطعمه اللحم لاول مرة فاستطاب الوان طبخه فادناه منه . واستأذنه مرة في تقبيل كتفيه فاذن له فقبله واختفى في الارض وكان ان نبت في موضع القبلة شبه حيتين عهد بمعالجتها الى الشيطان نفسه العائد اليه في صورة طبيب ماهر فوصف الدواء طلاء من ادمغة الناس ، فعاش الضحاك سفاكا يتداوى بادمغة الضحايا .

(٢) افريدون قاهر الضحاك وهو عند الآريين كنوح عند الساميين ، وهو جامع ارحام العرب والفرس لاول مرة بتزويجه ابناءه الثلاثة باميرات يمنيات ، وهذا ابو تمام يقول مادحا الواثق ومشيرا الى ما ذكر :

ما نال ما قد نال فرعون ولا … هامان في الدنيا ولا قارون
بل كان كالضحا… ك في سطواته … في العالمين وانت افريدون

رستم ، كبير ابطال الفرس ، وغيرها مما جاء في الشاهنامة ، واحدثها يعود الى القرن الخامس قبل الميلاد، اتضح لنا ان الحيرة اقدم الاوساط المعروفة التي نشأت فيها صلات العرب بالفرس على نور التاريخ وفي ظل السياسة .

والحيرة مدينة قامت على ضفة الفرات الغربية في الجنوب الشرقي من مشهد علي ، وعلى بعد ثلاثة اميال من موضع الكوفة شمالا . ابتناها اللخميون واخذوا اسمها — بوجه الترجيح — من السريانية ومعناه الحصن حوله الخندق ، ولذا عرفت — « حيرة النعمان » مرة و « وحيرة المنذر » اخرى.

وذاعت شهرتها في طيب المناخ ، وخصب التربة ، وصفاء الجو ، الى ان قيل : « يوم وليلة في الحيرة خير من دواء سنة . »

وكانت هذه العاصمة منذ نشأتها بيئة امتزجت فيها عناصر من امم متفرقة سادهم العرب . ولتمام السيادة العربية عليها نبذة تاريخية نستند اليها في سياق الكلام وهي :

لما عنت بلاد فارس للاسكندر الكبير بعد هزيمة دارا سنة ٣٣٣ ق.م. ولى عليها امراء عرفوا بملوك الطوائف . ولم يطل العهد بهؤلاء الملوك حتى شبت بينهم نار الفتن فرأى بعض العرب من تنوخ في شبوب تلك الفتن فرصة سانحة لاسترداد بعض ما غصبه الفرس من بلادهم فهبوا الى ما ارادوا برئاسة مالك بن فهم القضاعي القحطاني فنزل بهم في جانب الانبار وابتنى له قصراً هناك فكان ذلك البناء نواة لعمارة الحيرة . وعظمت تنوخ في عرب الشمال وعرفت بعرب الضاحية .

واعظم ملوك تنوخ رأياً وسلطاناً جذيمة الوضاح او الابرش ، مدخل العراق كلها في دولته وجامع العرب برأيه واول من ضرب في الحرب بالمجانيق من ملوك العرب ، نذكر له ، من فضل حكومته ، وقوفه ٢٢٦ م. في وجه اردشير بن بابك موحد بلاد ملوك الطوائف ومؤسس الدولة الساسانية وباعث مجد الفرس .

وانتفع الساسانيون بصداقة تنوخ في حربهم الروم وعرب الشام من قضاعة

والازد . ودامت هذه الصداقة طويلا غير انها لم تكن لتخلو من بعض فترات خصومة .

اما دور الحيرة المعول عليه في درس العلاقات الثقافية بين الفرس والعرب فيبتدي. بانتقال الحكم التنوخي بعد بقائه ما ينيف على قرن وربع القرن الى عمرو بن «رقاش» اخت جذيمة الوضاح الذي نسلته من عدي اللخمي ، وحب الى خاله فتبناه فورث الملك واسس السلالة اللخمية وقضى على سلطة نائلة العمليقة الملقبة بالزباء ، اميرة شمال الجزيرة — ما بين النهرين — وبسط جناحي الحيرة على معظم عرب الشمال .

وما زالت دولة بني لخم تنمو والحيرة يعظم شأنها السياسي الى ان كانت حكومة المنذر الاول بن النعمان الاول — باني الخورنق والسدير — فعظم شأن الحيرة الادبي ايضاً في ذلك العهد وكان من دلائل عظمتها ادباً وسلطاناً العهدة الى المنذر الاول بتربية بهرام جوربن يزدجرد تربية عربية واخذه الشعر عن العرب والتجاء هذا الامير الفارسي الى مربيه في امر استرداد ملكه ثم عوده اليه واستنصاره به في دفع غارات الروم ، فاشتد المنذر واوقع الرعب في قلوب الروم ولا سيما حين اشرف فاتحاً على عاصمتهم القسطنطينية .

وبعد ان عرضنا فيما قدمناه من تاريخ الحيرة الدولي ان ملك الفرس تأدب بالعربية لغة واكتسب من العروبة اخلاقاً ورياضة خيال نرى ان نقتطف من مقدمة بن خلدون قوله :

« ان لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان .. فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه امر التركيب حتى لايكاد ينحو فيه غير منحى للبلاغة التي للعرب وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجّه ونبا عنه سمعه بادنى فكر بل وبغير فكر الا بما استفاده من

حصول هذه الملكة ، فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعية وجبلة لذلك المحل ، ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم اعراباً وبلاغة امر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادىء الرأي انها جبلة وطبع . »

بهذا القول وبما هو بمعناه لبعض مفكري سائر اللغات ذات الخزانات الثقافية نستعين لنرفع ما نجده من صعوبة في فهم نسبة امثال الزمخشري وسيبويه والفارسي والصاحب بن عباد وابن العميد الفارسية وبلاغتهم العربية ، اذ ليس هؤلاء واندادهم من قادة الفكر والادب غير احفاد لاولئك الاسلاف الذين تأثروا بالتربية والنشأة فكانت لهم ملكة اللسان العربي الصميم .

ولقد كان الطابع العربي قوي الاثر في الفارسية لحدوث التماس بين المناذرة والاكاسرة ، والعربية ماتزال سليمة صرفة . فكانت عجمة الدم لا تؤثر في عربي المنشأ ، غير الحاصل على لغة آبائه واجداده ، تأثيراً يؤخر في سلامة بيانه وصحة ذوقه في مباراة ابناء الضاد في لسانهم .

ومن اشهر من عزت الحيرة ادبياً بملكهم عمرو بن هند صاحب الاخبار الكثيرة مع الشعراء والادباء نذكر منهم ثلاثة : طرفة بن العبد وخاله المتلمس وعمر ابن كلثوم .

اما النعمان بن المنذر المكنى بابي « قابوس » [1] فهو اشهرهم ورافع لواء العربية عالياً وممدوح نخبة من شعراء الجاهلية المقدمين كالنابغة الذبياني ، والمنخل اليشكري وحسان بن ثابت ، وحاتم الطائي ، وعدي بن زيد ، ولهذا الاخير « عدي » صفة بارزة في تكوين صلات ادبية بين بلاطي الحيرة وفارس ، فأبوه تعلم الفارسية واتقنها وادار البريد في عهد كسرى برويز ، واتصل عدي ايضاً بكسرى فكان كاتبه وترجمانه

(١) باني دير اللج في الحيرة ومدينة النعمانية في جنوب بغداد اليوم .

بالعربية ، وشغل وظيفته ابنه زيد من بعده .

وقد يجيء عدي والاعشى في القافلة الاولى من ادباء العرب المتأثرين بالفارسية والمدخلين على الشعر العربي بعض الدخيل الاعجمي ، كما ان بعض العرب كآل زيد العبادي وقيس بن مسعود وعبدالله بن جدعان واياس بن قبيصة الطائي — عامل كسرى على عين التمر وما والاها الى الحيرة — ادخلوا الفاظاً عربية على لغة الاعاجم .

وان نحن اضفنا الى التأثيرين الفردي والسياسي التأثيرين الوفدي والتجاري علمنا الى اي حد اتسع تبادل الصلات الادبية بين الامتين ، وادركنا مبلغ بروز الحيرة في هذا التماس المتبادل الطابع .

واشهر وفود العرب في الجاهلية ، الى بلاد فارس الوفد الذي وجهه ابو قابوس مؤلفاً من اكثم بن صيفي التميمي وعمر بن الشريد السلمي والحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين ، وخالد بن جعفر وعامر بن الطفيلي وعلقمة بن علاثة العامريين وعمرو بن معديكرب الزبيدي والحارث بن ظالم المري ، وكلهم خطباء وشعراء محسوبون منسوبون ، للدفاع عن كرامة العرب وامجادهم ففعلوا وظهروا موضع اعجاب كسرى وبطانته ووجوه دولته فاكرمهم مقيمين وودعهم محترمين .

وفي اخبار فتنة مزدك وبعض ايام العرب كيوم ذي قار[1] ما يقيم الدليل الواضح على حاجة الامتين الى اجادة اللغتين اذ ان العرب لم يستمروا مستضعفين الى جانب الفرس ، وهذا ابو تمام يذكر في مدحه بن مزيد الشيباني انتصار شيبان على العجم مفاخراً بقوله :

لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد ... وحيد من الاشباه ليس له صحب
به علمت صهب الاعاجم انه ... به اعربت عن ذات انفسها العرب

(١) ماء لبكر بن وائل بين الكوفة وواسط .

هو المشهد الفرد الذي ما نجا به لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب

لقد تبادلت الامتان ايضاً الروايات والقصص من واقعية وموضوعية واسطورية ، واشهر من حدّث من العرب باخبار الفرس فاكثر وتطرف النضر بن الحارث في الاسلام اذ كان يزعم انه في تحديثه باخبار رسم واسفنديار وملوك العجم امتع كلاماً من النبي الكريم محمد في تحديثه باخبار عاد وثموده وعن الحيرة سمع معظم ما روي .

وكان لاختلاط الامم التي تألفت منها عرب الشمال عامة وعرب الحيرة خاصة [1] يدفي خلق الصلات بينهم وبين جيرانهم من منافسين واحلاف، وفقاً للظروف ، وكان الفرس في مقدمة من كان لهم شأن مع عرب الحيرة في خصومة وولاء .

ولقد اجمع المؤرخون على ان الحيريين ، ولا سيما العباد منهم ، اساتذة العرب قديماً ومستنبطو الخط المنسوب الى الحيرة والمعروف بالجزم ايضاً والجاهدون في تأسيس المعارف العربية فهم نواة علماء العرب على حد المثل الجاهلي المأثور : « اول الشجرة النواة »

---

(١) تألف عرب الحيرة من ثلاث طبقات وهي :

٢ - تنوخيون ومساكنهم بيوت الشعر والوبر بين الحيرة والانبار .

٣ - العباد سكان منازل الحيرة واصحاب الحركتين السياسية والادبية فيها .

٤ - الاحلاف وهم نازلون في الحيرة من غير تنوخ والعباد .

الشعوبية وتأثيرها في الادب العباسي

لم تصل الدولة العربية من عمرها السياسي الى بيعة علي في الحجاز ونهوض معاوية في الشام لمناوأة تلك البيعة وانتزاع الخلافة من ابن ابي طالب، حتى بدا انقسام العرب هذه المرة ، أوسع خرقاً وأعسر رتقاً من الانقسام الملي اليثربي في مطل الرسالة النبوية على الدنيا وظهور الدولة العربية في ظل تلك الرسالة الرشيدة ، وذلك لان عوامل الفتن وتباين النزعات اصبحت أبعد غوراً في النفوس وأعدى في ايقاظ المطامع والاحقاد وهكذا كانت محاولات العباسيين ابناء عم الرسول ، والطالبيين ، ابناء بنته ، في استرداد الخلافة من آل ابي سفيان تفسح مجالا لدخول غير العرب الخالصين ، ممن ادخلوا الحكم العربي عنوة او صلحاً، فى شؤون سدة الخلافة العربية الاموية متظاهرين بالغيرة على نصرة اصحاب الحق ومقاومة اهل الباطل ، وهم ، في سرهم ، لا يضمرون غالباً غير الاقتصاص من العرب الفاتحين . على ان هذه المرحلة العسيرة من حياة الدولة العربية لم تكن ظاهرة جديدة او فعالية اولى في الكيان الدولي ، على صفحة هذه المعمورة ، فكثيراً ما تغزو أمةٌ أمةً اخرى بالسيف وتكون الغازية بالسيف مهزومة أمام القوى الفكرية الطاغية عليها من الحواضر المفتوحة ، ولنا بفتح الرومان أثينا خير شاهد على صحة ما نقول ، اذ كانت رومة سيدة الموقف بالجيش المظفر ، وأثينا سيدته بالفكر النير .

هذه كلمة لا بدَّ منها لندخل الى قلب الموضوع الذي نحن في صدر الكلام عليه مستندين الى ان عوامل السياسة والحكم يغلب فيها ان تطغى على العوامل الاخرى في الظاهر ، ولكن الفكر البشري ، آية الاعجاز في الخليقة ، كان وما يزال القوة الرئيسية في تدبير هذه الحياة وتنظيمها والسير بها في مختلف مناحي العمران والرقي .

على ضوء هذه الحقيقة الثابتة نتبين ان الدولة العربية اصيبت ، بعد فتحها بلاد الفرس ، بما أصيبت به الدولة الرومانية بعد فتحها بلاد الاغريق ، فقد كان الفرس ، زمن الفتح العربي ، اصحاب دولة من اخصب دول الاعصر القديمة فكراً واغزرها سلطاناً واكثرها عمراناً وأذهبها تاديا في دروب الملذات ، ولم يتبينوا مواضع الضعف ، عند تنبه العصبيات العربية والاحزاب الخلافية حتى مدوا يد نفوذهم الى جهاز الدولة العربية ، بعد ان سربوا اليها اباحيتهم ، يعملون على زعزعة اركان وحدتها وقوتها ، وهذا « النخر » في دوحة الدولة العربية لم ينحصر بالفرس ، ممن فيأ عليهم السلطان العربي ، بل تعداه الى غيرهم ايضاً ولكن « مناخر » الفرس كانت الاقوى والبادئة .

اجل ، ان هذه النقمة السياسية الناشئة في ايام عزة الامويين والمكبوتة في عهد الاشداء الحازمين من الخلفاء العباسيين امثال ابي جعفر قاتل ابي مسلم الخراساني ، وهرون الرشيد ، مبيد آل برمك ، اخذت تشتد وتستهر في عهد من تلا الامين ، الذي يعتبره جل المؤرخين خاتمة الخلفاء الضابطين دواتهم بشكل يوحي بهيبة الحكم .

وهذه النقمة السياسية الحاقدة المتربصة لهدم كيان الدولة العربية عندما تهيي دعائمها في غفلة القائمين على رعاية شؤونها ، هي نبني عليه تعريف الشعوبية في التاريخ العربي .

ولنترك الآن ما يمت مباشرة الى الحقل السياسي مقتصرين في تحديد الشعوبية ودرس اثرها كما عرفت في مفهوم تاريخ الادب . فالشعوبية على هذا القياس ، طغيان النزعات الدخيلة على جسم الامة العربية وتفكيرها ، في واسع دولتها ، على النزعة العربية الصرفة وتفضيل كل ما هو غير عربي على كل ما هو عربي ما خلا اللغة .

واشهر هذه النزعات واولاها النزعة الفارسية .

قد لا يكون في تاريخ آداب لغات الارض كلها تاريخ لغة تظهر فيه مستفيدة من فكر الامم الداخلة في ظل حكمها بالقدر الذى تظهر فيه اللغة العربية ، فهي من هذه الناحية تتمتع بخاصة عجيبة اذ تبدو كالمصهر تذوب فيه اداب الامم الاخرى لتنصب في المسابك النثرية وتنظم في الاسلاك الشعرية او تكون كخلايا النحل تجتمع فيها خصائص الازهار وعصاراتها الشهية او كمستقطرات العطر تنتزع الطيب من مكامنه. ولئن كانت الشعوبية شؤماً على الدولة العربية سياسيا وفأساً قاطعة في اصول سلطانها ، فلقد كانت ، من حيث المظهر الفكري ، جداول منسابة هنا وهناك تروي وتخصب وتثمر

ولعل من الخير ان ندخل في ابانة هذا التأثير بعض الشواهد الناطقة ، معتمدين على عرض موجز لبعض اقطاب الادب العربي او بالاحرى اللسان العربي ، دفعاً لما تتناوله لفظة ادب من المعاني الواسعة المتنوعة .

من هؤلاء الغرباء عن الاصل العربي المجاهرين بعدائهم النزعات العربية مجملة ، تحت لواء الادب الجديد ، فخورين باصولهم الفرسية متادين في اعلان شعوبيتهم بشار بن برد راس مخضرمي الدولتين ، الاموية والعباسية ، وموطيء الجدة في الشعر العربي ، بعد الوليد ، يقول :

الا ايهذا السائلي جاهداً ... ليعرفني انا أنف الكرم
غت في الكرام ، بني عامر ، ... فروعي واصلي قريش العجم

وابو نواس ، ممثل عصره وحامل لواء الجديد في الشعر ، يعلن شعوبيته جريئة جارحة في قوله :

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجت اسأل عن خماره البلد
يبكي على طلل الماضين من اسد ... لا در درك قل لي من بنو اسد ؟
ومن تميم ومن قيس ولفهما ... ليس الاعاريب عند الله من احد

الى ان يقول :

لا جف دمع الذي يصبو الى حجر ولا صفا قلب من يهفو الى وتد

ويطيع بن اياس، اخو ابي نواس في رفع لواء الجديد يقول في جهر الشعوبية الخليعة:

لافضل من بيد يحاربها القطا ومن جبلي طيء ووصفكما سلعا

تراقب عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

الا ترى هذا الجديد الشعوبي كم يفخر مجاهراً بغريب الاصل وجديد المنهج محقراً الاصل العربي والمناهج العربية القديمة ؟ ان الامر ظاهر لا يحتاج الى كشف ولا الى تدليل فالعربية ليست وجها جديداً ، بكل ما في الجدة من معنى ، ابتداء من دخول الموالي الفرس وغيرهم البلاد العربية ، فبدلا من اقتصاد دائرة الشعر العربي الجاهلي على وصف الديار وذكرى الاحبة والمديح والهجاء والحكم المتفرقة وبعض المحاولات في الغزل « التقليدي » والخمرة والوصف « العيني » المتقطع ، وعوضا عن اكتفاء الشعرين المخضرم والاموي بالقديم مع بعض زيادة عليه من شعر الاختصاص بالسياسة ، كشعر الاخطل التغلبي ، وشعر الاختصاص بالغزل ، على نوعيه العذري والاباحي ، كشعر جميل بن معمر وعمر بن ابي ربيعة ، اخذ شعراء الدولة العباسية يعدلون في المعروف من مناهج الادب القديم حتى يوشك ان ينتسخ ويفتحون من الجديد ابواباً لم تعرف من ذي قبل كالمجونيات والزهريات والصرفيات والزهديات الى غير ذلك مما يطول الكلام في عده .

واشهر ما يسترعي الانتباه عند دروس هذا الجديد اهتمام هؤلاء المولدين بما نسميه في الدراسة : « الوحدة الموضوعية » . ولئن كان بعض مؤرخي الآداب العربية كالشيباني وابي عبيدة مثلاً ينعون على العربية فقدان متانتها وضعف احاطتها بشتات اللفظ العربي كما في شعر الفرزدق ، مثلاً ، الذي يفضلونه على جرير من اجل انه حفظ للغة العربية ثلث الفاظها من الضياع ، على زعمهم ، فاننا لا نرى اليوم هذا « الحفظ » شيئاً يحسب بقدر الى جانب ما ربحه الادب الجديد من المرونة والاحاطة باساليب الكلام .

ولا بد لنا ، بما كان مجال الكلام ضيقاً في هذا البحث الصغير ، من ان ننوّه بان من ذكرناهم ، من شعراء العصر العباسي الاول الشعوبيين ، لم يكونوا سوى طليعة لشعراء كثيرين في الاعصر العباسية التالية ، بينهم غريب الجنس كابن الرومي ، صاحب اللوحات الوصفية الشعرية الخالدة ، وفيهم العرب الشاميون كابي تمام ، مفسح طريق الصناعة في الشعر العربي ومروض الحكمة فيه ، او كالبحتري ، مثقف الديباجة العربية وجاعلها مثلاً اعلى للشعراء . ومبلغ الفصحى ذروة من ذروات الوصف الرائع الذي قلّ ان سما الى اعلى منها شاعر آخر عند العرب وغيرهم من اصحاب الخزانات الشعرية ، وفي عدادهم ايضاً المتنبي والمعري المجليان في حلبة الشعر والفكر في آن واحد والمطلان من شاهق على دنيا التجاريب والفلسفة تنازل بها المفاخرين ونفحم المكابرين .

اما النثر العباسي الذي قيل فيه : « بدئ بعبد الحميد وختم بابن العميد » وجلى في ميدانه عبد الله بن المقفع وابو عثمان المعروف بالجاحظ ، فلم يكن ممتنعاً على الشعوبية ، واسطع دليل على صحة ما نقول ان اثنين من هؤلاء الفرسان الاربعة عربيان بالبيان العالي واللسان البليغ وفيما خلا هذا فعجمتهم غالبة بادية لكل ذي فكر مبصر . فاسلام بن المقفع على يد عم السفاح لم يمح من الكاتب مجوسته محواً كاملاً وبيان ابن العميد لم يمنعه من ان يرئس ديوان البلاط السافاني ويستوزر عند ركن الدولة الحسن بن بويه .

هذه لمع قصدنا بها الاشارة الى ما افادته العربية قديماً من الشعوبية لساناً وفكراً ، ولقد كانت العربية وما تزال مصابة بداء الشعوبية ، يشتد عليها حيناً ويضعف آخر وفقاً لعوامل ومؤثرات لا عد لمصادرها ولا ضوابط لمباديها ؛ هذا الداء المجهد الدولة والاجتماع كثيراً ما يحمل الصحة للسان والادب ولنا بما قدمنا عن العصور العباسية خير دليل .

احمد فارس الشدياق

موسوعة لغة وادب

اذا كان ادب النهضة الحديثة في لبنان موسوماً بالهلهلة والسهولة ، ولا سيما الربع الثاني من القرن العشرين ، فذلك لاسباب كثيرة نعتقد ان اهمها اثنان : الاسترسال مع البداهة في عصر السرعة ، وهيبة الموروث اللغوي العظيم عن طائفة من الادباء اللبنانيين نخص منهم بالذكر اثنين الشيخ ابراهيم اليازجي واحمد فارس الشدياق .

واملينا هذه عن احمد فارس الشدياق .

الشدياق عشقوتي المولد حدثي [1] المنشأ رافقت طلوعه على الحياة حوادث خاصة ربت في صدره التمرد واندفعت به في كفاح الاديب المتحرر من كل تقليد والمتفلت من قيود المذهبية ، فكان جوابة فكر ورحالة اسفار . فمن لبنان حيث انبلج فجره الى مصر بدعوة من المرسلين الاميركان ، وهناك حظي بتقدير محمد علي باشا الكبير فعهد اليه بتحرير « الوقائع المصرية » .

ومن مصر الى مالطة ، الى جامعة كامبريدج في انكلترا ، معلما مصححاً ، ومنها

---

(١) نسبة الى قريتي عشقوت والحدث في لبنان

الى باريس حيث حملت اليه ريح المصادفات باي تونس ، وكانت قصيدته في صاحب تونس آنئذ ، معارضة طوت الاجيال لتجوي ، من غور الفكر الحديث في مسابك العربية العصماء ، فرس رهان الى جانب لامية كعب بن زهير في مدحه الرسول العربي الكريم .

وحمله تكريم الباي وتقديره على سفينة خاصة الى تونس فتولى تحرير الرائد التونسي » وحسدت الاستانة تونس على الاديب الشاعر فارسلت الصدارة العظمى العثمانية بامر السلطان عبد المجيد ، تطلبه من احمد باشا فجاء عاصمة بني عثمان ، وقد سبقه اليها شعره في صاحب العرش ، وانشأهناك جريدة « الجوائب » اول جريدةعربية جارت الصحافة الغربية بقسط وافر من التوفيق وأطلعت على دنيا العرب صحيفة تفننت فيها عبقرية احمد فارس ، في اساليب السياسة والعلم والادب والدعابة ، في بيان لم تعرف العربية اعلى منه في عصورها جميعاً .

واجدر ما يستحق التنويه به في هذا المقام ان « الجوائب » ، وليدة ذلك القلم اللبناني الفذ ، اعتبرها ساسة الغرب ، ردحاً من الزمن ، ترجمان الشؤون الشرقية .

وكان الشدياق في كل ما دبج يراعه ، محيطا بشعث اللسان العربي ، يقوم بيانه فيها على اربعة اركان صامدة للتاريخ خالدة بخلود لغة الوحي والتنزيل ، وهي : ذوق المنقح اللغوي – حكمة الاجتماع – التهكم الفلسفي – الاعتداد بالنفس .

ومن ينكر على صاحب « الجاسوس على القاموس » والساق على الساق (وسر الليال في القلب والابدال) احاطته الواسعة بمفردات اللغة العربية وامتلاكه خواص معانيها ، وفيها مدهشات الابحاث اللغوية الموفقة التي تترك المطالع مقتنعا بان المؤلف سامي الموهبة كامل العدة في هذا المجال ، واسطع مؤهلاته كلغوي هي ذوق الواضع يأخذ ، بين يديه ، قاموس الفيروزبادي ، ويرى ، مثلاً ، ان صاحب القاموس يورد لفظه قاء بمعنى فاء فيرفض هذا الترداف ، حكماً ذوقياً ، وما يزال ينقب حتى يعثر في قاموس لسان العرب ، على ما نصه : (تفيأت المرأة لزوجها تثنت عليه وتكسرت

تدللاً والقت نفسها عليه ، من الفيء وهي الرجوع) ، وقد ذُكر ذلك في القاف ، قال الازهري : وهو تصحيف والصواب تفيأت بالفاء ومنه قول الشاعر .

« تفيأت ذات الدلال والخفر لعابس جافي الدلال مقشعرّ »

ولم يقتنع ذوق الشدياق الوضعي في العربية ، فاستمر منقبا ، ليجد فاء في غير معنى رجع فوجدها ، كما يريد بمعنى تحرك الخيلاء في القول العربي القديم المأثور : « مثل المؤمن كحافة الزرع تفيئها الريح مرة هنا ومرة هناك » . ثم طالع «الاساس» في باب فاء فوجد فيه ما نصه : « وفيأت المرأة شعرها حركته خيلاء وتفيأت لزوجها تكسرت له وتميلت غنجا الخ » .

وليس المقصود من هذا الشاهد التدليل بالرجوع الى التحقيق اللغوي الذي نريد او نحد من سعته في هذه الايام ، بل جل ما نرمي اليه هو ان نعرض المترجم عنه محققا يجري متقدما في هذا المضمار فيحد من سعة الترادف اللغوي المنافي الذوق الوضعي والنابي عن القابلية الاقتباسية . فهو لا يحقق ليخرج بعذر للمتقدمين وانما تحقيقه مشذباً مهذباً ينزع الى ذلك بقسط عظيم من الغور والاحاطة والذوق . وهكذا يعتمد الشدياق على ذوق الواضع علاوة على الذكاء والجلد والتنقيب ليجعلك تعقل عقله وتسلم له بصحة ما يقول دون ان تحمل نفسك عبء البحث والدرس وفي عمله هذا شهادة صادقة بانه جمع في صدره خزانة لغة فضمن للفصحى قيمتها من الضياع في عصر خبا فيه نور العلم في هذه البلاد وتجهمت سماء المعارف وقام منفرداً بمهمة مجمع علمي منظم .

اقتصرنا على اليسير في تعريف احمد فارس الشدياق فارساً مجليا في ميدان اللغة لنعود اليه حكيما اجتماعياً ينثر الحكم تارة وطوراً ينظمها ، فهو اذا ما نثرها فعن قلم بليغ وفي كلام مترابط التعبير جزل الالفاظ ، فانظر اليه يمد قلمه الى تصحيح لغة ابن المقفع في الحكايات التي وردت في « اللفيف في كل معنى طريف » مأخوذة عن كتاب كليلة ودمنة فهو يقول بدلا من : « راس شجرة ، ذروة شجرة ، ومن ذاهبة في السماء ،

باسقة ، ومن نقل العش ، جمعه ، ومن لا يمكنها ذلك ، لا يتم لها ذلك »، والتصحيح الذوقي الوضعي في اللغة دأبه في كل ما يؤلف وينقل .

وكتاب اللفيف مجموعة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة فيها من قيمتي مؤلفها : الكثير من متانة اللغة والنافع من حرية الفكر .

اما شعر الشدياق فمعظمه في المدح ، والمدح باب من ابواب النظم كان له مرتبة عالية في سالف العصور العربية ، فلا ارى من المهم ان نتناولها للبحث في حين ان ديوانه حافل بما يمت الى ادب العصر بصلة مباشرة نتبين فيه على وضح العقل والحس ادب الشاعر ، كشعر الحكمة ، رفيق العصور كلها في الاداب العالمية . واكثر حكم الشدياق الشعرية في ذم الدنيا التي آلمته في عزيز عليه وفي نفسه ايضا ، وكان يرسلها ابياتا متقطعة كلما عاودته غصة الالم او عنّ له ان يهجو الناس والزمان فتؤلف هذه الناحية من شعره صورة لكفاح الاديب العاثر الحظ عثاراً نفسانيا ان لم يكن مرتبيا في الناس ، ولا مبالغة في القول ان هذين البيتين :

بنو الدنيا أتوا امراً قبيحاً ... بان كلفوا بامهم غراما
لذلك قابلتهم بالرزايا ... فكانت ما كانت حيوا لهم لزاما

من الحكمة الجامعة واقع الحياة ما يدعو الى الاعجاب ، فالعقاب ملازم غرام الابن بامه ، غرام الانسان بامه الارض .

والاعجاب يرتفع الى الدهشة لقوله :

أرى غاية اللذات قبل ابتدا ... فمن اجل هذا لست انعم بالدنيا
فان هي الا للذي طاش فكره ... فلا يرهب العقبى ولا يرقب الثنيا

فالشدياق في هذين البيتين سابر غور الدنيا ولذاذاتها عارضاً لنا ماهيتها عرضاً

موجزاً في نصف بيت من الشعر :

« ارى غاية اللذات قبل ابتدائها » .

ومن منا لا يشعر بان الفترة من الزمن التي تسبق عهد اللذة انعم للنفس من طعم اللذة نفسها وذلك لمرارة خوف الزوال التي تستولي على الناعم اثناء الاستمتاع .

ولا اريد ان انتقل من ناحية الحكمة الاجتماعية في ادب الشدياق قبل ان اقدم من شعره ما يصل بين حكمته واعتداده بنفسه قوله :

اذا ما رمت من دنياك امراً فلا تك بالهني ولا المري
فقد طبعت على اخلاق أنثى وما خلب النساء سوى الجري

لا شك في ان هذا الشعر لا يتوفق اليه من طُبع على القوة ومال الى الاقدام فاستعان ادبه فملك زمام الجرأة الادبية وكان رجلًا في دنيا الانوثة . لا اراني مضطراً الى الاكثار من البينات لاضع اعتداد احمد فارس الشدياق بنفسه وتهكمه الفلسفي خصومه موضع اللمس في ادبه وهو القائل :

ارى حولا في عين دنياي انها تظل ترى لي ثانياً وانا فردُ
فمن اجل ذا ضنت بشطر معيشتي وما حاضر ندي وما نده يبدو

الم يكسر شاعرنا الرقم القياسي الذي وضعه المتنبي للاعتداد بالنفس وتحقير الخصوم اذ قال :

« ان اكن معجباً فعجب عجيب ولم يجد فوق نفسه من مزيد »؟

الم يصل في نسبته الحول لعين دنياه برؤيتها له ثانياً ، وهو فرد ، الى غاية شعرية تحجب اليك هذا الفخر الواسع المدى ؟؟ . . واغرب من هذا كله ان الشدياق يتعمد الفلسفة كثيراً حتى في هجائه ، او ليس في هذا البيت :

« كيف يدري شيئاً وما هو شيء ان هذا في حيز المستحيل »

نموذج هجاء فلسفي يجعل البيت الواحد افعل في نفس الخصم من قصيدة ذم طويلة قاسية .

ومن اراد زيادة ايضاح عن هذه الناحية في ادب الشدياق فليطالع قصيدته البائية المنشورة في عدد الجوائب رقم ٢٥ ومطلعها :

ويلي على هذي الجوائب جائت علي من النوائب

ويخلص منها بقوله :

لو كان هذا الخلق مثلي كان كلهم أقارب

وخلاصة القول ان احمد فارس الشدياق اسدى الى العربية فضلاً كبيراً ، قد يكون في وقته وفي حين الحاجة اليه ، ابقى قدرا من عصر كامل من عصور العربية ، هذه اللغة التي حلت هذا الجيل الجميل بمعدنها الثمين فصهره لها سبائك ونظمه قلائد وطلع به على العالم ، وكان من امهر صاغته هذا الفارس الذي اراج سوقها ايام الكساد وصقل جوهرها بعد ان علته الكدرة وتكاثف عليه الغبار .

ابن الرومي طائر

غرد خارج سربه

استمر ابن الرومي زمناً طويلاً بين الشعراء المغمورين الى ان ذر عنه غبار النسيان ونفض العفاء النقد الادبي عندما اخذ يتلمس طريقه القويم في انصاف الموهوبين الذين اغفل امرهم لبعض الاسباب . وما نرجحه ان هذا الشاعر بقي مطموس القدر مبخوس الحق حتى مطل الدراسات الحديثة لسببين رئيسيين وهما :

— ١ — ضمة الاصل واختلاطه وتبذل الشخصية .

— ٢ — اغفال شعره او ضياعه .

وان نحن استندنا الى ما جمع من متبدد شعره ، وفيه ما يفي للنظر في قيمة ناسجه استطعنا القول ان هذا الوضيع النسب الدخيل ؛ وما اكثر الاقلام الغذة الدخيلة في العهد السياسي ، هو على ما فيه من اسفاف في قدر الذات ، نادر التراث الشعري في لسان العرب ولئن كان البحتري قد سبقه الى ابراز الفن الوصفي بروزاً رائعاً في موضوعه وديباجته واجزائه فلقد نحا ابن الرومي نحواً آخر في الوصف فكان شعره مستدقاً في صورته ومعناه مستلاً في الغالب من زوايا الاهمال او من خصائص الموصوف

او من طغيان الحس . وانه في ساعات نظمه كالصائغ اللبق يجمع اجزاء ابياته فينتهي من صوغها ، وعليها ، فوق دقتها ، تماسك في النسج وابداع في الايجاد عجز عنها الشاعر نفسه اذ قال : « ما اخذت معنى الا أمته » .

وهذا الاخذ الذي يميت الموضوع هو الناحية التي كانت مهجورة تقريباً ، قبل ابن الرومي .

وفي يقيني ان هذا الموسوس لم يكن مغالياً في هذا القول الحكيم ، على كره من الحكمة التي لم تتيسر له الا في بعض وثبات البداهة ، فالدقة اذاً طبع يطغى وليست تعملا يؤتى بالحيلة او بالمراس .

فهذا ابن الرومي يدس ملقط الفن الى زوايا الاهمال لينتزع من اوضع الامكنة مادة لشعره ويرتفع بها الى سماء الصورة فهل رأيت احدب طلع في صورة قلمية كأنها لوحة زيتية قبل قول جريح الرومي :

قصرت اخادعه وغار قذاله ... فكأنه متربص ان يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة ... واحس ثانية لها فتجمعا

وهل رأيت قالي زلابية اصبح موضوعاً شعرياً يحيا فيه الى جانب زيته الذي شبهه الشاعر بحجر الفلسفة او حجر الكيمياء ، الذي ادعى العرب وجوده زمناً طويلا ، قبل ان نظم شاعرنا المعدم ابياته التالية ، وقد تحلب ريقه :

ومستقر على كرسيه تعب ... روحي الفداء له من مدنف تعب
ابصرته سحرا يقلي زلابية ... في رقة الشعر والتجويف كالقصب
يلقي العجين لجيناً من انامله ... فيستحيل شبابيكاً من الذهب
كأنما زيته المقلي حين بدا ... كالكيمياء التي قالوا ولم تصب

لا تقل يا قارئي ، وما الذي يسقط من قيمة الشعر العربي لو استقطت هذه الابيات وسقط معها ابن الرومي ، ان كان لا يسمو الا بمثل موضوعها ! لا تقل ذلك ، مرة اخرى ، فمثل هذه اللوحات الوضيعة الموضوع نتف فسيفساء او ان شئت أصداف

نادرة في متحف الفن الشعري .

وان كنت تحب الدقة في خصائص الموصوف ، ولا سيما في الحسناء ، فاسمعه يقوله في وحيد المغنية :

وغرير بحسنها قال : صفها ! قلت : امران بين وشديد
يسهل القول انها احسن الاشياء طرا ، ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين اليها فشقي بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعاها ، وقرية لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغني ، من سكون الاوصال وهي تحيد
لا تراها هناك تجحظ عين لك ، منها ، ولا يدر وريد
من هدوء وليس فيه انقطاع وسجو ، وما به تبديد
مد في شأو صوتها نفس كاف كانفاس عاشقيها مديد
وارق الدلال والغنج منه وبراه الشجا فكاد يبيد [1]
فتراه يموت طوراً ويحيا ، مستلذ بسيطه والنشيد [2]

الى ان يقول .

أهي شيء ، لا تسأم العين منه ام لها كل ساعة تجديد ؟

او اسمعه وقد رأى حسناء ، وفي يدها كأس خمرة ، يقول :

ومهفهف كملت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكؤوس الى مراشفة وتضج في يده من الحبس
ابصرته ، والكأس بين فم منه وبين انامل خمس
فكأنها ، وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

(١) براه : اضعفه . الشجا : ما يتخل الصوت من الغصة المستلحة في الغناء .
(٢) البسيط : ما رق وامتد من الصوت . والنشيد : رفع الصوت والترنيم

اليس في هذه الابيات ، الدالية والسينية ، صور حية تثب الى العين عند قرأتها مستجلية خصائص الموصوف مستوفية محاسنه الى حد الغاية التي لا مرمى بعدها ؟ وان في قوله :

اهي شيء لا تسأم العين منه؟ ام لها كل ساعة تجديد ؟

جمعاً لمآخذ الروعة الجمالية يرفعها الى ذرى الاعجاز ، في استفهامين تقريريين ، يستنفد في الاول منهما ملل العين بعوامل الدهشة ، وفي الثاني يستبطن ملاحة موصوفة ميزات التجدد دفعاً لالفة الحسن التي تضعف عوامل الاعجاب ، فبقاء الشعور بسلطان الجمال على الحواس والجوانح مستمد من مثل لوليه وهمية في مجالي البهجة والجاذبية تبسط لك ، وانت المفتون بما تحسه ، دنيا دائرة من المهابه الممتعة .

وما يعرضه من خصائص الموصوف مما او ممن حوله لا يعلو الى ارفع مما يبديه من مكامن نفسه اما طغى حسه متاثراً بحب او كراهية ، ولما كانت آلامه مسيطرة على هناءاته نستعين رثاءه وهجاءه على اظهار هذا الطغيان الحسي .

لو لم تكن في شاعرية هذا المتطير النابي عن المجتمع منافذ عبقرية الاشراق لما امكنك ان تقع له الا على المقاطع المظلمة الحزينة الملوحة بنار الحزن والالم والحرمان والقطيعة ؛ ولكن تلك المنافذ اطلت بشعره على مسارح الخلود حتى في سويقات حزنه اليائس وعيشه البائس ، فاصغ اليه يرثي ابنه الاوسط ، مبتدئاً بخطاب عينيه :

بكاؤكما يشفي ، وان كان لا يجدي فجودا فقد اودى نظير كما عندي
الا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب ، على عمد
توخى حمام الموت اوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقد
طواه الردى عني ، فاضحى مزاره بعيداً على قرب ، قريباً على بعد

ويستمر الشاعر في اخراج لوعته على ابنه الميت اخراجاً لا يترك لك فيه مجالا لاستزادة على حزن الاب الثاكل ولا لاستيضاح وقوع الخطب الجسيم ، فالقصيدة في مجموعها فجيعة عائلية في مجلى من الفن واطار من القافية المنسجمة والالم المرير ، فليست

هذه الابيات مختارا منها وانما هي جزء من صدرها .

واما ما عرفناه لهذا الشاعر من الهجاء فهو ، على ما فيه من قرس وعناء في استجماع الوصف المؤذي حتى يبرز المهجو موضوعاً للضحك والسخرية، يثير اعجابك بفنه في حين انت تكره مؤداه .

ونحن ، اذ نعرض نموذجاً من هذا الهجاء ، نود ان نجري في عرض مستندين الى جمال الادب المطلق، ذلك الجمال الذي يعجبك منسوباً الى الفن بصرف النظر عن حسن المادة المتناولة او قبحها . هذا الفن الذي كان سبباً في خلق المذهب التقريري في الشعر (Réalisme) فكان ديوان « زهور الشر » آية في الفن الشعري في ادب الغرب ، وكانت الرسوم الاستهزائية او الرمزية الشكلية (Caricature) فناً غازياً اساليب البيان عند الحاجة الى لباقة القرس دون النزول بالشعر الى درك الهجاء المنظوم .

واليك مقتضباً من هجاء تناول به شخصاً كان قد مدحه فرد اليه شعره وقال له امدح به غيري ، بعنوان ، المديح المردود :

رددت على مدحي بعد مطل ... وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت : « امدح به من شئت غيري » ... ومن ذا يقبل المدح الرديدا ؟
ولا سيما ، وقد اعقبت فيه ... مخازيك اللواتي لن تبيدا
وما للحي في اكفان ميت ، ... لبوس ، بعدما امتلأت صديدا !

هذه اشارات الى ناحية الدقة الوصفية في شعر ابن الرومي ، تلك الناحية ، بل ذلك الوجه المغلف شعره كله بغنى الفن ، وخليق بمن كان مثله في ضيق عيش وذهاب صحة وفناء أسرة ان يكون مخلع البيت مفقود التوازن في غنائه ووصفه كما هي حاله الطبيعية ، ولكنها كيمياء الفن تجمع الاضداد فتؤلف منها المحاسن .

لذلك نرى ان هذا الشاعر كان طائراً خارج سربه ، وقع على ما لم يقع عليه احد منهم ، وعزلته طيرته ففنى من ابداعه ولم يعنه عصره او مجتمعه اعانة ذات بال في بناء شعره مثلما توفر لسواه حتى للاعمى البغيض ، بشار بن برد ، الذي شق له طريق «منبوذي المجتمع» .

واستناداً الى هذا الارث الفني النذير استحق ابن الرومي مرتبة خاصة اعلاها بعض اساتذة الادب ، في دراساته الحديثة ، فوق شعراء العربية جميعاً في مختلف العصور .

مسانيد الشهرة

في دنيا الادب الخالد

لا بد لرجل الفكر ، ليترك اثراً عظيما في عصره ، من ان يحدث فيه احد تأثيرين او كليهما معاً :

تأثير القيم الانتاجية . وتأثير الشخصية قدراً وايحاء . فاذا تناولنا قولهم : « على اي اساس نال الشيخ ابرهيم اليازجي ذلك المنصب الرفيع في الادب العربي الحديث مع مع انه لم يترك آثاراً كبيرة فيه ؟ » .

أجبنا بما يلي : اليازجي من اساتذة المنشئين النادرين في العربية وموئل البلاغة الحصيفة في الادب العربي الحديث ، نشأ في بيت مستقيم اللسان فصيح البيان ، وكأنه واحه من واحات الفصحى في صحراء عصره .

وكانت بواكير ادبه وهو ما يزال رطب العود ، ثماراً تلفت نظر العارفين الى قدر الاديب الناشىء وتوحي ، بثقة كبيرة ، بذلك القلم الطالع مبشرا ببلوغ الاوج الرفيع « في مجال الضياء » .

ولعل ميله المبكر الى الصحافة من جهة ، وعنايته بالابحاث العلمية من جهة اخرى

الهياه عن التوجه الى التصنيف الادبي الصرف ، فجرت عليه الصحافة ، وهي آنذاك منبر بلاغة ، حرب الخصوم الذين تولوا الرد عليه ، فيما كان ينقد من سقطات اقلام الكتاب ، مفنداً اياها في مختلف الجرائد التي اشترك في تحريرها او انشأها مستقلاً بها ، فمن « النجاح » التي اخفقت في الظهور ، قبل تمام العام على صدورها ، الى « الطبيب » التي اعنا الطب امرها فاحتجبت عند استكمال الحول ، وهي اداة ادب او سياسة في لبنان ، الى « البيان » « فالضياء » في مصر ، ومصر ملتقى الاقلام اللبنانية ، في فترة الانبعاث المباركة ، التي فيها اخذت تتحلحل اغلال العبودية على ضفاف النيل .

وعهد الشيخ الكبير هو عمر « الضياء » الخطير .

الا ان انضباطه الشخصي على الرغم من مزاجه العصبي ، في معركة الاقلام التي كثر فيها خصومه ، وكان ابرزهم نده الكفء احمد فارس الشدياق ، ضمن له احترام المقدرين الالباء ، ذلك الاحترام الذي ساندت فيه شخصية الشيخ الادبية مواهبه العلمية واخلاقه الابية واخلاصه الجري للغة ، فكانت منزلته رفيعة في عصره ، على كره من توزيع اوقاته ومجهوداته هنا وهناك ، ، بين معلم ومصحح وباحث عالم ومقوم اقلام مربية وواضع مسميات كثيرة ومصطلحات عديدة للمستحدثات العصرية . وقد تكون هذه المهام التي اشرنا اليها ومؤلفه « نجعة الرائد » ومقاله الطويل « لغة الجرائد » وكتابه « الامالي اللسانية » مضافة الى عمله الغزير ، ضمانة لعلو مقامه وذيوع شهرته .

وقد تكون السنون التسع ، التي قضاها في غزير وفي بيروت منقحاً عبارة التوراة ، طبعة اليسوعيين ، والزمن الذي قضاه في اتمام شرح ديوان ابي الطيب ، الذي كان قد بدأه الاب فانجزه الابن ونسبه الى الوالد براً بالابوة ، وشفع هذا الشرح المجهد الدقيق بتنقيح الارجوزة في علم النحو ، لابيه ايضاً وباهدائه فترة من عمره الغالي الى صديقه ، جميل المدور ، فهذب له فيها كتابه ، تاريخ بابل واشور .

فلو طرحنا هذه السنين الموقوفة على التضحية البنوية والوفاء للاصدقاء من عمره القصير لبلغت ربع عمره كاملاً او نصف المرحلة الانتاجية منه تقريباً . ومن كانت هذه حاله : انصراف الى علم الفلك، فانتساب الى جمعيات علمية عالمية في باريس وانفرس والسلفادور ، وتنقيب لتصحيح المعجمات اللغوية وسقطات الكتاب الكثيرة ، في مرحلة كان لسلامة البيان فيها المقام الاعلى في ميزات الاقلام ، فان له بعض العذر ان لم يكن كله ، على الا يكون انتاجه الادبي كثيراً .

وعلاوة على ما قدمنا فان في القليل الذي تقرأه للشيخ ابرهيم اليازجي ، من شعر او نثر ، ما يوقفك موقف المعجب بهذا الرجل ناثراً شاعراً ، ففي نثره يجري قلماً حصيفاً تحس في سطوره بلاغة توشك ان تكون اعجازاً فيستحق ان يعتبر امام منشئين ، وتنظر الى معانيه فتأسرك اليها قوة فكر وبراعة لغوي ولباقة اديب ممتاز .

واليك شيئاً من مقال في موضوع « القمر »

« هو ، بعد الشمس ، ابهى الاجرام السماوية على العموم ، ونكتة الفلك الارضي بل اغرب ما يرى الناظر في عالم النجوم اذا استقل فلكه يسبح فوق الوهاد والآكام ورايته يتراجع مع النجم وهو مجد في وجهته الى الامام ، فتخطى الابراج ؛ وكأنه واقف لا يحس له الناظرون انتقالا ، وظهر بشكله من الهلال الى البدر حتى يعود هلالا فكان قيد الابصار تراه ابداً جديداً ، على تقادم عهده ، وتتوهمه على قيد اميال عنها ، وهو الشاسع في بعده ، على انه ادنى العوالم من الارض مقيلا واعلقهن بها حبالا واقربهن تمثيلاً ، فهو صورة الارض في السماء ورفيق طيتها الى حيث لا تدري في اجواز الفضاء ، وشريك بختها فيما ارصد لها من احكام القضاء ، بل هو وليدها ، وان تقضي قبلها شبابه و شابت دونها اترابه ، وقد دفعته عنها منذ انفصاله فمر الى حيث لا مطمع له في ايابه ، ثم عز عليها الا يكون بحيالها ، فأخذت عليه طريق انسيابه . فهو ابداً

يدور من حولها مقطع النياط ويقطع معها اضعاف ما تقطعه من الاشواط . بل هو مثال الرونق والجمال وآية الابهة والجلال . اذا برز من الافق فانهزمت من وجهه جيوش الظلماء وانفرجت الكواكب لمره في عرض السماء ، فاقبل يتنقل بينها ، وهو يسير الهوينا عزة وخيلاء فسمت اليه الابصار اعجاباً واكباراً وانصرفت اليه الوجوه ابتهاجاً واستبشاراً » . وفي شعره يتراءى لك الشاعر المبدع ، وان اقل ، فهو لم يكن كثير البضاعة كتجار الاخشاب ، مثلاً فانه ، بلا ريب قيم المعدن في انتاجه معرض صائغ . فاسمعه يقول في عود الطرب .

«وعودٍ صفا الندمان قدماً بظله وما برحت تصغو لديه المجالسُ
تعشقه طير الاراكة اخضراً وحن عليه ريشه ، وهو يابس»

وله في ساعة دقاقة شيء من البدائع قال :

«ومحصية اعمارنا كلما انقضت لنا ساعة دقت لنا جرس الحزن
فيا بنت هذا الدهر قد سرت سيره فهل انت ، دون الناس ، منه على أمن ؟»

ولهذا الشاعر الناثر مسند جليل الاثر بنته له جراءته اذ ظهر في صف الطليعة من اصحاب الفكر المتحرر ، يرسل في نفثات شعره حمماً من نيران الثائرين الناهضين . وفي قصيدته الرائية ، التي تحسب من ابكار الشعر الحر ، انتفاضات عربية تلوح بذكريات العز رتومي الى طلول المجد ، قال مستهلاً بالدعوة الى نبذ التوكلية الشرقية :

«برأيك لذا اذا عزّ النصير ولا يعبث بهمتك الفتور

الى ان يقول :

كأني بالبلاد تنوح حزناً وقد اودى بعظمتها الثبور
يحن الارز في لبنان شجواً وتندب بعد ذاك العز صور
وتدمر في دمار مستمر وما سكانها الا النسور
واضحت بعلبك وليس فيها سوى خرب لعظمتها تشير
فلو درت البلاد بما عراها لكانت تلهنها تمور»

ولا يحسن بنا ان نمر ، في مجال التنويه بقدر الشيخ الشاعر ، دون ان نشير الى الى تناوله ، من بعض مشاغله العلمية ، موضوعات شعرية ، ويكفي ، اشارة الى ذلك ، ان نستشهد له بقوله في الزُهرة :

« تمشي الهوينا كما مرّ النسيم ضحىً ، في هودج من شعاع النور وقاد
يسارق الطرف عين الشمس منظرها فالشمس ، من دونها ، حلت بمرصاد
حتى اذا هجمت في ليلها ظفرت منها العيون بلمح المبسم البادي

وتخلص الى مخاطبتها ، مشيراً الى انها كانت معبودة شعوب قديمة ، فيقول :

رأوك للحسن معبودا وما وهموا فالحسن معبود عشاق وزهاد
لعل للارض هذا الحظ عندكم وانها لو علمتم دار إفساد

وانه لمن الخير ان نثبت له بيتيه المشهورين النامين عن نفس نبيلة ؛ فهما يصلحان لان يكونا رداً لكل من اعتدي عليه بهجاء مر وهما :

ليس الوقيعة من شأني فان عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ند
اني اضن بعرضي ان يلم بـه غيري فهل اتولى خرقه بيدي

فبروز شخصية الشيخ ابرهيم في بره بالاب ووفائه وتضحيته للاصدقاء ، وتسنمه منزلة رقيب البيان العربي ومدبج نماذجه النديرة ، وبراعته في حسن الاغراض عن وقائع الخصوم ، واخلاصه للادب والعلم ، كل هذه جمعت له فدعمت له تآليفه القليلة ، فكان تأثيره في النهضة الادبية كبيرا ومرتبته عالية ، فترسم الكتاب بعده اساليب انشائه وانتفعو باستحداثاته للمعاني الجديدة ، اذ وقعوا عليه مدرباً للاقلام المتمرسة بالتأليف والصحافة بعد ان كان معلماً للناشئة . وقد توج هذا اليازجي الكبير مواهبه السامية بذوق مهذب اهله لان يكون واضع حروف لفن الطباعة والنشر .

ومن توفرت فيه كل هذه المزايا ، فكانت ايامه شموعاً تحترق في خدمة الادب والعلم والذوق ، يبدو خليقا بان يتبوأ امامة البيان في عصره وان تؤمن له الامامة خلود ذكره ، على الرغم من قلة آثاره المطبوعة .

فهرس الكتاب

صفحة

٩ مقدمة الشيخ عبدالله العلايلي

١٢ مدخل

١٤ توطئة

٢١ الشعر العربي في بلاطات الملوك

٢٤ نشأة الشعر في العرب وانفساح هالته

٢٩ شخصية الشاعر

٣٢ من مجالي الغنائية في الشعر العربي

٣٧ صلة الشعر العربي بالملوك والامراء

٤٠ النابغة الذبياني في بلاط الحيرة

٤٧ الاخطل التغلبي في بلاط بني امية .

٥٥ المتنبي وامارة بني حمدان .

٧١ شوقي في بلاط مصر

٨٧ جادة المديح واحدة وان تعددت الطرق

٩١ من سلسلة الامالي الادبية

٩٣ الحيرة اقدم بيئة تماس بين الثقافتين العربية والفارسية

٩٩ الشعوبية وتأثيرها في الادب العباسي .

١٠٤ احمد فارس الشدياق

١١٠ ابن الرومي طائر غرد خارج سربه

١١٦ مساند الشهرة في دنيا الادب الخالد

تم طبع هذا الكتاب
على
مطابع صادر ـ ريحاني
في الثالث من نيسان عام الف وتسعماية وخمسين
١٩٥٠

808.1:N26sA:c.1
نصر ،نسيم
الشعر العربى فى بلاطات الملوك
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031183

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

808.1
N26sA

General Library

808.1
N26sA
c.1